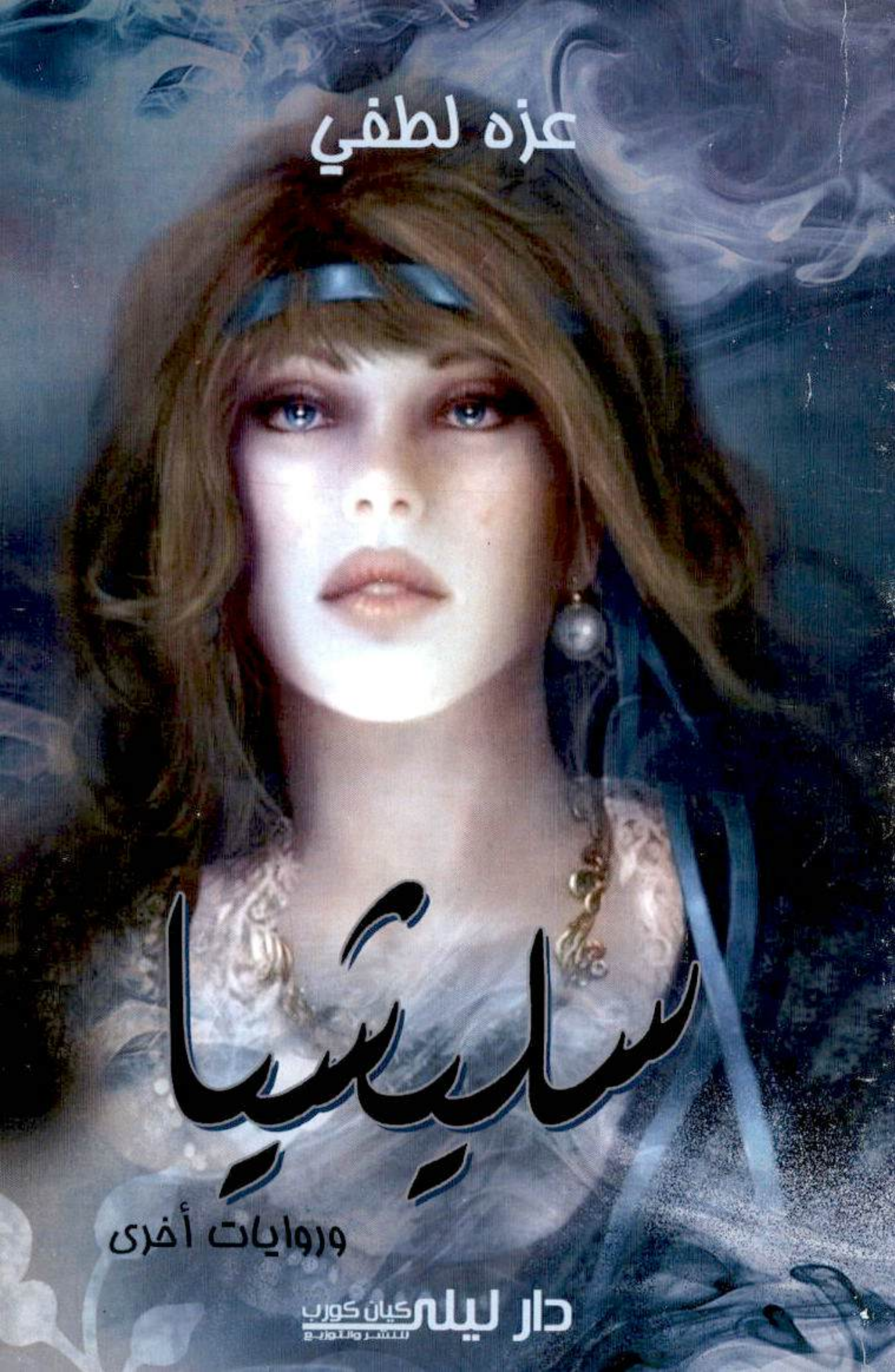


عزه لطفي
سليشيا
وروايات أخرى
دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

سيلتشيا

عزة لطفي

الكتاب:

سيلشيا

المؤلف:

عزة لطفي

رقم الإيداع:

3006 /2013

الترقيم الدولي:

978-977-5238-70-2

★★★

الغلاف:

محمد محمود

المدير الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★★★

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

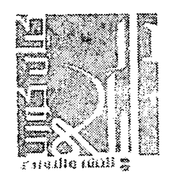
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)

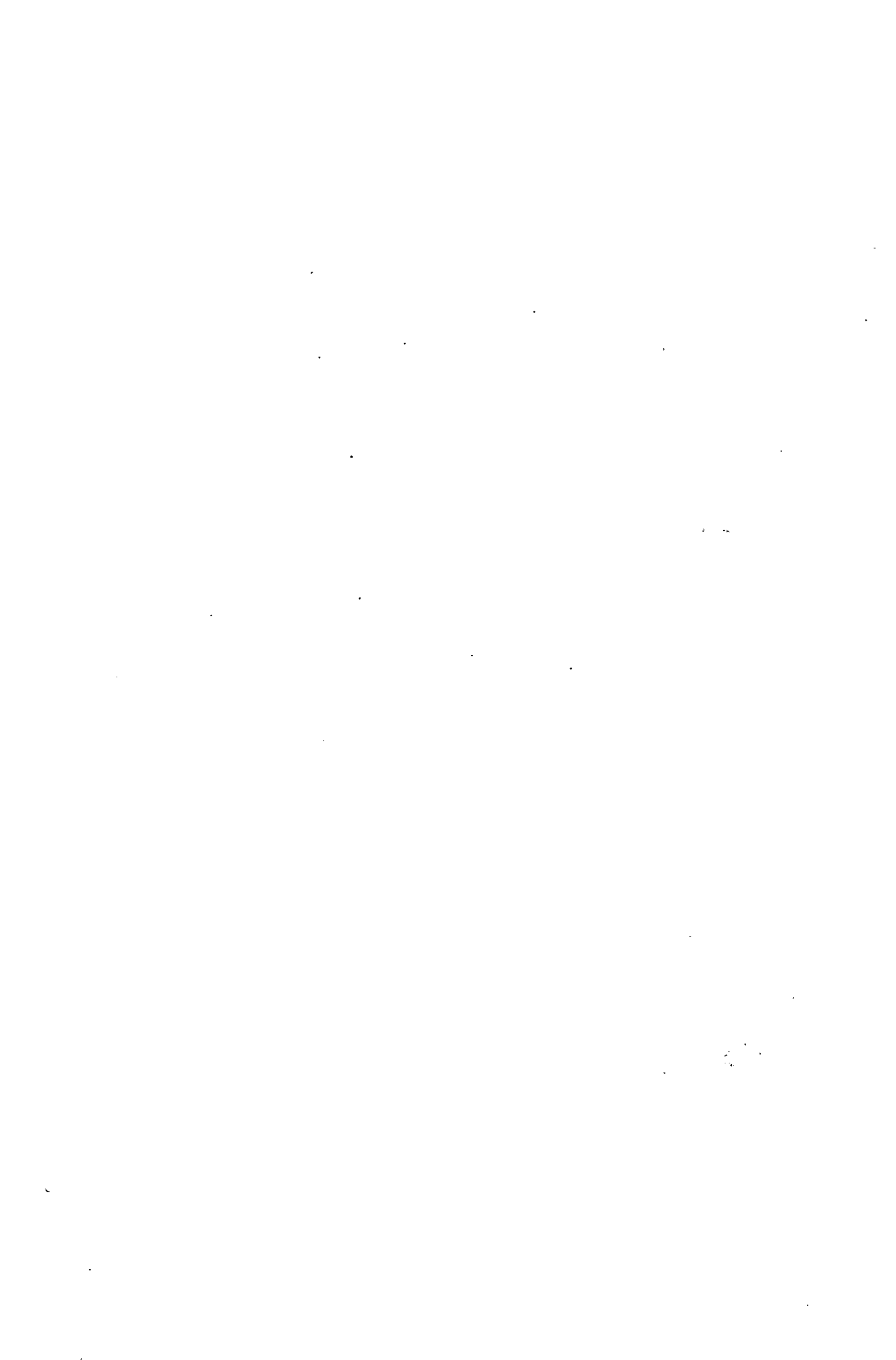
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع
دار ليلى

عزة لطفي

سيلشيا





القصة الأولى

اللواء عبد العظيم

العمل مع صديقي شوكت عمل شاق ومجهد ومضن.. ولا يخلو أبدًا من المفاجآت التي غالبًا ما تكون غير سارة.. فمثلاً منذ ثلاثة أيام طلب مني أن أذهب إليه للضرورة وعلى وجه السرعة؛ فالعمل الذي لديه لا يحتمل التأجيل، وحتى يضمن حضوري أخذ يغريني بطريقته المعتادة التي دائمًا ما ينقبض لها قلبي وتنتهي غالبًا بكارثة أو على الأقل مصيبة..

– عندي لك مفاجأة؟

فقلت في سري: يا رب استر..

وعلى الرغم من أني قد حاولت جاهدًا أن أبقي شكوكي ومخاوفي في مكان ما طي الكتمان فإني لم أستطع أن أمنع نفسي ولا لساني عن الكلام، فقلت له بصوت مرتفع إلى حد ما:

– خير يا شوكت؟

فردَّ في ثقة تؤكد للأسف ظنوني:

– طبعًا خير.. ولما تعرف المفاجأة سوف تشكرني.

– لو أعرف حالا يكون أحسن.

– يا أخي تعالى وانت تعرف..

– ويا ريت وحياتي عندك ما تتأخر.

كنت أعرف أن في الأمر كارثة محققة.. خاصة بعد ما قد حلفني بحياته عندي.. وعلى الرغم من أن حياته عندي لم تكن تساوي الكثير كما يعرف.. فإنه يصر في كل مرة يطلب فيها أي شيء مني بأن يحلفني بحياته الغالية عندي، وقد كنت أظن بأنني الشخص الوحيد الذي يعتقد شوكت أن لحياته قيمة لديه، لكني اكتشفت أن شوكت يعتقد أن لحياته قيمة عند نصف سكان المعمورة على الأقل حتى عند بائع الخضار ذلك الذي لم يره شوكت في حياته ولم يشترِ من عنده من قبل هذه المرة فإذا بشوكت يهتف به في ثقة: «خلي بالك من الميزان وحياتي عندك»، وكذلك الجزار.. والبقال.. والصيدلي.. وبائع الفول المدمس.. وبائع الفول السوداني.. وهلم جرا.. حتى الشحاذ الذي التقيناه أمس الأول عندما أراد أن يصرفه شوكت قال له متذمرا: «ابتعد عن طريقي وحياتي عندك».. طب بالذمة ده اسمه كلام؟ عموما لقد كنت على يقين هذه المرة من أنه إن لم تكن هناك مصيبة فعلى الأقل مقلب.. فليرحمني الله إن ذهبت.. وليسامحني الرب إن لم أذهب.. لكن بعد لحظة غير قليلة من التفكير وبعد لحظات كثيرة من التردد قررت أن أذهب بنفسي لأرى.. ويا ليتني ما ذهبت.. فقد استقبلني شوكت بابتسامة الرجل البريء من كل التهم.. تلك الابتسامة التي أعرفها جيدا.. ولا تثير في نفسي إلا كل نوازع الشك..

وقال في غير قليل من الغرور:

- فقط لتعرف كم أحبك..

ثم ابتسم لي مرة أخرى.. فابتسمت له ابتسامة غيظ مكتوم وقلت في صبر أوشك على النفاد:

- خلصني.. وقل لي إيه الموضوع.

- اللواء عبد العظيم وعائلته سيقومون بجولة في المدينة.

- وأنا دخلي إيه في الموضوع؟

- دخلك إيه؟ أمال مين هيكون معاهم؟

- وحياة أبوك بلاش هزار.. انت عارف إني لا بطيق الزباين المصريين ولا بستظرف أهاليهم.. ده غير إن آخر مرة اشتغلت فيها مع مصريين كانت مع واحد لواء وكنت رايح فيها المعتقل ولا انت خلاص نسيت يومها حصل إيه؟

- ومالهم المصريين؟ ما احنا منهم.. ولا انت صحيت يوم التلات الصبح اكتشفت إنك أمريكي؟! ولا يمكن اكتشفت إن جدك كان خواجة بريطاني؟! وبعدين إيه حكاية اللواء اللي انت ماسك لنا فيها دي؟ ما تسيبك من الموضوع ده بقى.. انت عارف إن صوابعك مش زي بعضها ولا

إيه؟ ده يمكن كان فاكرني خدام عند أهله.. ولا يكون ورثني تبع تركة المرحوم أبوه؟ والله ما كان عندي خبر.

– لا أبوه ولا أمه.. فضك بقى من السيرة دي.. اللواء عبد العظيم راجل محترم.. وإن شاء الله تشوف بنفسك إنه مش زي أي حد.

– ماليش نفس أشوف.. شوف لك انت حد غيري.

– يا ريت.. إيدي على كتفك.. لكن الدنيا موسم.. والناس كلها مشغولة.. وأنا في الأول والآخر ماليش غيرك يا صاحبي، ده غير إن معاد الزيارة بعد ربع ساعة.. يعني م الآخر مفيش وقت.. منين أجيب أنا مرشد تاني ويكون كمان جاهز بعد ربع ساعة؟ حتى إن كان فاضي ومعندوش النهارده أي شغل.

– مش مشكلتي يا أخ شوكت.. أنا نبهت عليك كتير قبل كده، نبهت عليك بدل المرة ألف مرة.

– المرة دي يا صاحبي.. آخر مرة.

– كل مرة بنعيد نفس السيناريو.. ونفس الحوار.

– جربني المرة دي كمان..

– الحكاية مش محتاجة تجارب.. سيادة اللواء اللي اشتغلت معاه

آخر مرة كنت خلاص قربت أرتكب فيه جريمة على آخر اليوم.

– معلش يا صاحبي انت السبب.. وإن كنت عايز الحق دماغك هي السبب، بتعيش في زمن غير الزمن.. وفاكر إن من حقك تصلح الكون وتعدل المايلة.. وتقول للغلط غلط.

– بقيت أنا الغلطان في نظرك؟ طب والله عال.. وبعدين إيه حكاية عايز أقول للغلط انت غلط؟ أمال عايزني أقول له إيه، يا غلط انت صح برافو عليك؟!

– انت مالك؟ تحشر نفسك ليه؟

– أمال مال مين؟ ما هو لو كل واحد فينا شاف الغلط وغمض عينيه.. يبقى قول على الدنيا يا رحمن يا رحيم.

– الدنيا كلها على كده يا صاحبي.

– ومين قال لك إني أحب أكون انت، أو حتى أكون جزء من الدنيا الغلط اللي انت بتتكلم عنها؟

– كل ده علشان واحد عسكري غبي.. لا يعرف الفرق بين الغفير والوزير.

– فعلا هو واحد عسكري غبي بصحيح.. لأنه كان فاكر إنه

بيحافظ على النظام في دولة المفترض إن فيها قانون ودستور ونظام.. عسكري غبي فعلا.. لأنه كان فاكر إن من صميم واجباته إنه يحفظ كرامة المواطن المصري، سواء كان هذا المواطن المصري مواطنا عاقلا مثل سيادة اللواء.. أو حتى مجرد رجل مثلي من عامة الشعب أكيد مجنون..

- كل هذا الغضب لمجرد إن عسكري مرور غبي قوي أصر على أن يحرر مخالفة مرورية للسائق الذي كان يقود تلك العربة التي يركبها سيادة اللواء على الرغم من علمه بمن فيها.

- لا سيادتك.. كل هذا الغضب لأن سيادة اللواء المحترم والمبجل، لمن هم مثلك، لم يعجبه أن يطبق القانون الذي هو واحد من حراسه، وبدلاً من أن يعنِّف السائق أو حتى يوجه له أدنى لوم.. أمسك بهاتفه الخلوي وجهازه الميري اللاسلكي ليتصل بأعلى القيادات واللواءات في شرطة المرور حتى تتم معاقبة العسكري الغلبان على فعلته الشنعاء، متباهيًا أمام أهل بيته بتحديه السافر للقانون.

- من الواضح فعلا يا صاحبي أنك لا تعيش معنا على نفس الأرض التي نعيش عليها ولا تظللك نفس السماء.

- عندك حق طبعا يا شوكت.. فصاحبك يعيش في السنغال.. وفوق

دماغه سماء طاجيكستان.

– انت بتهزر وصاحبك حبيبك في ورطة؟!

– أعمل لك إيه إذا كنت خلاص عميت؟ وعايزنا بدل ما نشكر العسكري الغلبان على إخلاصه في عمله وتفانيه.. نعاقبه!

– أمال انت كنت عايز الراجل يعمل له إيه؟ يضرب له تعظيم سلام مثلا؟ ولا تحب حضرتك إنه يأمر له بميدالية ولا حتى يأمر له بنيشان وهو بيقل قيمته قدام أهل بيته؟!

– أقل ما فيها يا أخي.. والله لو كنت مكان الحكومة لكنت عملت له تمثال وحطيته في الميدان وإن كان على أهل بيت سيادته.. فالرجل الحق صاحب المبادئ هو من لا يخشى في الحق لومة لائم حتى لو كان هؤلاء الذين يلومونه هم أهل بيته.. ثم قيمة إيه اللي بتتكلم انت عنها؟ بصراحة ومن الآخر.. الناس دي مالهمش أصلا أي قيمة.

– لما انت عارف.. واجع دماغك ليه؟ وعموما يا سيدي ولا يهمك، أنا هكتب يافطة كبيرة عليها اسمي بالكامل وعنواني كمان أشكر فيها سيادة العسكري الهمام وأقدم له فيها الكثير من الاعتذار.. لكن أرجوك لو سمحت أنقذني من ورطتي وبعدين نبقى نناقش مشكلة اللواء

والعسكري.

- أنا هنقذك المرة دي بحكم الصداقة اللي بيننا يعني شغل تاني معاك.. يا ريتك يا صاحبي تسامحني.

- ولو حتى باسم الصداقة؟

- تحت أي مسمى.. وتحت أي ظرف.

- تعيش لي يا صاحبي.. وتعيش لي جدعنتك.. تحب أعرفك بقى على الناس؟ زمانهم ملوا من الانتظار.

وكالعادة.. لم يكن في انتظارنا أي فرد من العائلة المحترمة.. التي أشار إليها صديقي غير العزيز شوكت في حديثه.. وهذا هو الشيء الوحيد الذي توقعته منهم.. ووجدته.. فعلى الرغم من كل تلك المحاسن التي أتحفني بها شوكت وشنف بها أذنيَّ عن مدى روعة العائلة الكريمة وسمو أخلاقهم وحسن تربيتهم وذوقهم الجم.. لكن قبل أن أفتح بُقي وأطلع له لساني وأقول له كلمة واقفة بجد في زوري.. قال لي شوكت — صاحبي وحبيبي —:

- وحياتي عندك ما تبدأ المحاضرة إياها.. لأني حفظتها صم من كتر ما سمعتها.. ومن كل المرات التي سبقت تلك المرة وعلى أتم الاستعداد

إني أسمعها لك.. تحب أسمع لك؟

- مفيش داعي يا شوكت.. المشكلة ليست في الحفظ يا صاحبي، بقى بذمتك دول الناس المحترمين اللي بتتكلم عنهم يا شوكت أفندي؟!

- عارف ان احترام المواعيد والالتزام بالكلمة هي أهم الأسباب اللي أدت إلى تقدم الأمم؟

- تمام يا شوكت.. شاطر.. والغلط صدقني لا يُرد..

ولكن على الرغم من قناعتي الشخصية بقيمة الالتزام بالكلمة وقيمة احترام المواعيد للتقدم في مضمار الحياة.. والوقوف جنبا إلى جنب مع دول العالم المتمدين فإنني قد تعلمت على يد السيد اللواء المبجل وعائلته سببا آخر للتخلف الذي نحن فيه.. فبعد عناء الانتظار وبعد لحظات طويلة من الزفر والنفر، التقيت أخيرا السيد اللواء والعائلة الكريمة: زوجة سيادة اللواء.. وابن سيادة اللواء.. وابنة سيادة اللواء.. وكذلك زوجة ابنه.. وأيضا زوج ابنته.. وبينما كان السيد اللواء منتفخ الأوداج لسبب لا أعلمه - على الأقل حتى الآن - ويتدلى كرشه أمامه في ثقة كبيرة لا محل لها من الإعراب ليملأ ثلاثة أرباع المسافة الواقعة بيني وبينه.. لذا فقد أخذ هذا الفأر الصغير اللعون.. الذي يحتل له مكانا في داخلي رغما عني.. ذلك الفأر الذي لم أرغب

يوما في تربيته.. ولا حتى مجرد وجوده في أي منطقة على بعد عشرة أمتار على الأقل من محيط وجودي، لكنه فجأة بدأ يكبر.. ويلعب.. وينط.. ويفط في قفصي الصدري المتحسس بطبيعته من ناحية البعيد سعادته ومن أول نظرة.. ولكن رغما عن أنف هذا الفأر العنيد فقد مددت يدي مرحبا بسيادته في غير ود حقيقي يجمع بيننا، وعلى غير رغبة حقة في هذه التحية.. ولا رغبة حقة في هذا السلام.. وبنظرة سريعة لهيئة سيادة اللواء عبد العظيم.. يمكننا القول: إن الرجل لم يكن إلا نسخة غير معدلة لصورة رجل شرطة جاوز كثيرا سن المعاش ولكنه يأبى أن يعترف بقهر الزمن له؛ لذا فالرجل يصبغ شعر رأسه بحرفية عالية.. قد تمحو من سنه الحقيقية وعمره القانوني والرسمي المدون في الأوراق الرسمية ما يزيد على عشرة أعوام، لكن الزمن لم يترك له الكثير من وسامة رجل كان شابا في يوم من الأيام.

أما زوجة الرجل.. فقد كانت تبدو وكأنها سيدة متزنة.. ووقورة.. وقد تبدو وكأنها من أهل الطيبة والوداعة.. وقد تبدو وكأنها على خلق.. وقد تبدو وكأنها حسنة السريرة.. وإن كانت الحقيقة تفصح عن نفسها في كل كلمة تنطق بها.. ففي طيبتها تصنع وفي وداعتها الكثير من اللزوجة، وبينما كانت تملأ وجهها بابتسامة تتسع وتزداد مساحتها بطريقة مطاطية غريبة ومريبة وفي تصنُّع ملحوظ كلما نظرت نحوها عن قصد أو حتى عن

غير قصد.. إلا أن تلك الابتسامة المرسومة بعناية وكأنها من كثرة الاستعمال قد التصقت على صفحة وجهها وأصبحت جزءا منها لا يتجزأ.

أما بنت سيادة اللواء.. فلم أرَ فيها إلا كل بجاحة وكل وقاحة.. فإن لم يكن مهمًّا ما كانت ترتديه يومها.. هذا إن كنا نستطيع أن نعتبر فانلة داخلية نوعا من الملابس التي يمكن أن ترتديه النساء المصريات في مدينة متحفظة في عمق الصعيد بل وتسير بها هكذا في الشارع علانية وأمام أعين الناس ربما يقبل المجتمع الأقصري شيئا من هذا.. بل وأكثر من هذا بكثير.. ولكن ابنة سيادة اللواء واحدة من هؤلاء الذين لا تنطبق عليهن الشروط. فعلى حد علمي ما زالت تحمل الجنسية المصرية حتى إن تأمركت.. أو تعرت.. وإن كنت كلما نظرت إلى ما كانت ترتديه يومها.. وإلى أبيها اللواء المحترم وهو يكاد يتيه فخرا بابنته التي تكاد تكون عارية.. وكلما نظرت إلى أمها تلك التي ربتها على الانحلال أو ربما تلك التي لم تربها من الأساس.. فبينما تتمسك بمظاهر التقى والصلاح المزيف.. وبينما تضع على شعر رأسها غطاء.. أرى ابنتها أحوج إليه منها لتستر بعض الذي يظهر منها، وهو بالمناسبة ليس بالقليل.. فالدين ليس مجرد قطعة مزركشة من القماش تضعها زوجة سيادته على رأسها رياء ونفاقا وترفع به مسئوليتها عن فساد أخلاق ابنتها.. تلك التي

تقذفني برسائل أنكرها.. وإن كنت كرجل لا أجهل أبدا فحواها ولا معناها.. لكن سلوكها المشين لم يكن يشعرني إلا بالقرف الشديد وقد ذكرتني ابنة سيادته بزوجة رجل من قريتنا كان يتظاهر بالعفاف والتقى ولكنه هاجر من بلدتنا إلى أقصى الشمال السعيد وتزوج من عاهرة أوروبية كانت لكل من أراد.. وعندما تزوجها وضع اسمه في قائمة طويلة لن يكون أبدا في آخرها كما لم يكن يوما في أولها.. فما إن تمله في يوم من الأيام، وهذا ما سوف يحدث وبكل تأكيد، فسوف تبحث لنفسها عن ذيل جديد.. أو ربما عن عاهر جديد يبيع نفسه لمن تستطيع أن تدفع.. وقد كان صاحبنا يقضي معظم وقته في أوروبا متجولا بين البارات والحانات، لكنه عندما يعود إلى مصر.. يلبس بدل الشورت الجلباب.. ويضع في قدمه القبقاب.. ويجر في ذيله زوجته الحاجة فاطمة ربة الصون والعفاف.. في الحقيقة لا أعرف لماذا تذكرت هذا الرجل الآن، ولا لماذا انتابتني تلك الرغبة القوية في البصق، ولا لماذا اجتاحني هذا الشعور القوي والملح بالغثيان وأنا أتسلم رسائل ابنته الشابة.. التي ربما ذكرتني بالحاجة فاطمة ورسائلها الفجة.. ما اضطرني إلى النظر مرة ثانية إلى ما كانت ترتديه ابنة سيادة اللواء.. عذرا، فالنظرة الأولى ليست في الحسبان.. والنظرة الثانية هي للتأكيد والضمان وحتى لا نكون من الظالمين.. ولكن

عندما تأكدت ارتسمت فوق وجهي هذه النظرة التي عندما لمحتها أدارت رأسها نحوي بقوة وعنف وردت على نظرتي لها بنظرة من عينيها أقوى وأوقح وكأنها تقول لي: معذور.. أو ربما لتقول لي: متخلف.. أو ربما لتقول لي: معك حق في ألا تفهم.. أو ربما لتقول لي شيئا لن أفهمه على الإطلاق.. لكني كدت أشعر بها وهي تغمز لي فانتابني إحساس سيئ للغاية أنها قد رأت زوجتي سهير.. أشيك من يعملن في فندق الصفوة الشهير، ولك أن تتخيل طبعا مدى شياكتها إذا عرفت أن فندق الصفوة هو فندق ذو ثلاث نجوم فقط.. على الرغم من أنه إحقاقا للحق لا يستحق أكثر من نجمة واحدة يتيمة من باب الشفقة ليس إلا..

وزوجتي سهير..

حبيبة قلبي.. هي واحدة من أشيك عشر عاملات بفندق الصفوة الذي لا يعمل فيه سوى ست سيدات.. ثلاث عاملات نظافة.. واثنتان في المطعم.. وموظفة الاستقبال النهارية.. والتي اختيرت لجمالها بلا أدنى شك.. دعك من أنها زوجتي وحبيبة قلبي.. ودعك من رحمها الممتلئ بطفلي الصغير.. ودعك من جسدها المتورم.. من أثر الزلال الذي ألم بها مؤخرا.. ودعك من النمش والكلف وحب الشباب الذي يملأ وجهها.. فكل هذا حدث عارض بسبب الحمل.. نعم دعك من بطنها المنتفخ وكأنه يوشك على الانفجار في أي

لحظة بعد أن أتمت شهرها الثامن ودخلت الشهر التاسع من حملها.. ولذا فمن المتوقع أن تضع حملها قريبا.. وعلى الرغم من أنني قد حاولت كثيرا أن أمنعها عن العمل أثناء فترة الحمل ليس خوفا عليها ولا على الجنين الذي يحشو بطنها ولكن إشفاقا على نفسي من أن يراها الناس هكذا معي ويعرفون حقيقة كونها سهير زوجتي وحبيبة قلبي، لكن زوجتي كانت تصر على الاستمرار في العمل حتى اللحظة الأخيرة من عمر هذا الحمل.. بل وكانت تتهمني كلما رفضت بالرجعية.. ربما لأني أجهل حقيقة أن المرأة في أوروبا تظل تعمل حتى تضع حملها سالمة.. فزوجتي سهير خبيرة في شئون المرأة الأوروبية على الرغم من أن أقصى حدود جولاتها في الخارج لم تتعدَّ حدود قامولا والبغدادي، وهما – لمن لا يعرف – قريتان تابعتان لمدينة الأقصر.. تقع الأولى في أقصى الشمال الغربي للمدينة.. بينما تقع الثانية في أقصى الجنوب الشرقي للمدينة.. وبالطبع لم أستطع أن أفعل شيئا أمنع به سهير من الذهاب إلى العمل غير أن أضع قناعا ضاحكا فوق وجهي متظاهرا بالتمدن مثل أي رجل أوروبي متفتح رغما عن حقيقة كوني مجرد رجل صعيدي متزمت ورجعي إلى حد التخلف.. لكني وافقت مكرها وعلى مضض أن أكون رجلا متحضرا ومتفهما ومتفتحا وقبلت بعمل زوجتي في مثل تلك الظروف، وإن كنت بيني وبين نفسي أكاد أفتك بها لولا خوفي الجم على طفلي الذي لم

يولد بعدُ وخوفي أكثر منها على نفسي.. على الرغم من أن زوجتي سهير تحبني كثيرا جدا.. فهي لا تكاد تراني في أي مكان ولو من بعيد حتى تجري نحوي في فرحة وتشير لأصدقائها نحوي في فخر وتيه: زوجي محمود، مرشد إنجليزي.. تقول متجوزة محمود ياسين؟! ولقد حاولت كثيرا أن أقنعها بأنه لا داعي أبدا أن تأخذنا عين قوية لا ترحم أو حتى يصيبنا من جراء أفعالها شيء من الحسد، ولكن لأني أسعد الناس حظا فزوجتي سهير امرأة لا تؤمن إلا بالقدر.. وربما كانت هي المرأة الوحيدة من بين النساء جميعا التي لا تعتقد في الحسد ولا العين التي فلقت الحجر، ولذا فكلما أشارت لي من بعيد وعلمت بقدومها المتوقع والسريع تركت موقعي بسرعة البرق.. قبل أن تلحق بي وأضطر لتقديمها لمن معي، ولكن مع سهير فالأمر حقا مختلف.. فحتى لو تلكأت أو ترددت أو تباطأت أو حاولت بطريقة أو بأخرى الهرب.. فما كان هذا ليمنع زوجتي وحبيبة قلبي سهير، ولو للحظة، عن تقديم نفسها بنفسها.. تماما كما يفعل الخواجات (مثلما تظن).

وللعلم فإن زوجتي سهير امرأة جميلة جدا.. ولذا لم أستطع أن أرى في الكون امرأة أجمل منها.. فجمالها كان يمنعني من النظر إلى أي امرأة سواها بعد أن أصابني عمى الجمال على رأي عمتي إحسان.. أو بمعنى آخر بعدما فقدت قدرتي على رؤيته مجددا.. ولذا لم أُعِد التجربة

مرة أخرى بعد فشلي فيها وبنجاح.. ولا داعي أبدا للاستغراب.. فليس بالشيء الغريب أن تجد من ينجح مثلي في الفشل.. نعم لقد فعلت.. فقصة فشلي من وجهة نظري.. أو نجاحي منقطع النظير من وجهة نظر زوجتي سهير - كما تصر أن تطلق دائما على تجربتنا المشتركة معا - حتى إن كانت قصة مملة.. ومعادة.. ومكررة.. ويعيش فصولها أغلب الأزواج.. لكن على كل حال لا داعي للغم.. أكيد كل واحد فيه ما يكفيه.

وعموما.. خلينا في حكاية سيادة اللواء عبد العظيم.. فالرجل واحد من أغنى عشرة رجال في أمريكا.. تماما كما تعد زوجتي سهير واحدة من أجمل عشر نساء في منتجع الصفوة السياحي الأشهر على الإطلاق (والذي لم يسمع أحد باسمه من قبل) وحتى لا يأخذك خيالك بعيدا كما أخذني.. وتظن أن سيادته يقصد الولايات الأمريكية المتحدة كما أخبرني لاحقا.. التي تعرضت مؤخرا لأزمة اقتصادية انتقلت منها إلى كل دول العالم.. ربما بسبب سيطرة سيادته على سوق المال هناك.. وليس من دليل على قرب أفول الشمس الأمريكية إلا وجود سيادة اللواء عبد العظيم وأمثاله فيها وتمتعه أيضا بالنفوذ والفلوس، على حد قوله.. فإذا كان الفساد عندنا في مصر هو سبب ثراء أمثاله.. فوجوده هو وأمثاله في أمريكا لهو أكبر دليل على وجود الفساد هناك أيضا.. فأبشروا خيرا..

ولكن أليس من الممكن أن أكـون مخطئـا؟ أو ربمـا أكـون قـد أسـأت الفهم ولو قليلا.. فربما لم يكن يقصد أمريكا نفسها الـتي نعرفهـا.. لكـن هل هناك من أمريكا أخرى غير تلك الـتي نعرفهـا؟ علـى كـلٍ فقـد جلـس سيادته في الكرسي الأمامي.. أقصد في مكـاني.. مكـان المرشـد الـسياحي.. والسبب أن رجليه طويلة حبتين (عـادي، وبتحـصل كـتير) وطبعـا عـايز ياخد راحته ويمد رجليه.. ولكنه بعد لحظات من جلوسه في مكان المرشـد تقمص الدور وقال للعائلة الكريمة:

– عـارفين؟ المنطقـة هنـا كانـت خرابـة، لكـن التطـوير في الفـترة الأخيرة عمل من الفسيخ شربات.

والدم ابتدا يغلـي في عروقـي.. إمـا أن الرجـل غـبي.. وإمـا أنـه لا يفهم.. وإما أنه مخدوع.. وإما أنه مضحوك عليه.. ولكن الرجل لم يكتـفِ بتوجيه كلامه للأسرة الكريمة فالتفت نحوي متسائلا في غباء ووقاحة:

– ولا انت إيه رأيك يا أبو حنفي؟

وأنا بصراحة.. ومـن الآخـر، لا أكـره في حيـاتي غـير أبـو حنفـي هذه.. اسمي محمود.. ينادينى أبو حنفي بمناسبة إيـه؟ لـو كنـت أعـرف السبب ما كنت غضبت.. لكـني وحتـى هـذه اللحظـة لا أعـرف؛ لـذا مـن

الواضح أنه على قدر كرهي لأبو حنفي فسوف أكره هذا الرجل.. قال أبو حنفي قال.. لكن بصراحة ومن غيظي كان لازم أرد:

– والله يا أفندم.. ليس لهذه الدرجة.

– ليس لهذه الدرجة! بمعنى إيه؟

– بمعنى إني كنت بحبها الأول أكتر.. أيام ما كان فيها الخضرة والغيطان.

– طبعا قصدك من أيام الترعة..

– هو حضرتك كنت هنا قبل كده؟

– طبعا كنت هنا.. بقى الترعة أحسن عندك من المنتجع السياحي؟ يا ريتك يا أبو حنفي تقول لي كلام معقول.

– ما دام سيادتك شايف كده يبقى عند حضرتك حق، حصل تطوير.. وتطوير مهم كمان وخطير..

من الواضح أن التطوير في نظر سعادته إنهم يردموا الترعة ويجرفوا الأرض الزراعية.. ويدمروا واحدة من أجود أنواع التربة.. والأكثر خصوبة.. والأعلى إنتاجية.. ويبيعوا الأرض لواحد مستثمر.. صديق لواحد بيستهبل يبني عليها فندق ولا شاليه.. تماما كما أرادوا أن

يحولوا أرض المريس الخصبة.. بل التي ربما كانت واحدة من أكثر أراضي مصر خصوبة إلى مرسى سياحي عملاق للفنادق العائمة.. جنوب كوبري البغدادي بالبر الغربي.. وقام جيش المنتفعين من الإعلاميين والصحفيين بالتهليل والتكبير للمشروع العملاق وكأنه المشروع الذي سوف ينقل المدينة من العصر الحجري إلى عصر رواد الفضاء، وقد حاول أهالي البلدة أن يفهموهم مساوئ هذا المشروع، حتى إنهم قد جلبوا خبراء ومختصين على حسابهم الخاص وقاموا بعمل دراسات علمية تثبت صحة كلامهم.. وقد قاموا بعمل دراسات جيولوجية وزراعية وهندسية ومساحية.. كلها أثبتت شيئا واحدا..

إن إقامة هذا المشروع في هذا المكان بالذات هي خطأ كبير لا يُغتفر.. بل قاموا بأكثر من ذلك بأن قدموا عددا من البدائل الممكنة، منها - على سبيل المثال -: دراسة تؤكد إمكانية إقامة المشروع في الجهة الأخري من الصحراء، وهي أراض أقل جودة، لكن قلب المحافظ الأصم يرفض أن يقبل بأي حل آخر إلا أن يدمر **500** فدان من أجود الأراضي الزراعية.. ويأبى إلا أن يطرد آلاف السكان من بيوتهم ويشردهم وينقلهم بموجب قرار مجحف من تلك الأرض التي ولدوا عليها وتربوا فيها ودفنوا موتاهم في باطنها.. هذا كله من أجل مشروع تمكن إقامته في

الصحراء بعيدا عن بيوتهم.. وبعيداً عن مدارسهم.. وبعيدا عن مساجدهم ومجالسهم.. وبعيدا عن مراكزهم الحضارية والثقافية.. وبعيدا عن حدائقهم.. وبعيدا عن مستشفياتهم تلك التي بنوها بعرقهم وجهودهم الذاتية، وإذا كانت حجة السيد اللواء المحافظ بأن انتزاع الأراضي من أيدي أصحابها ليس إلا للمنفعة العامة ولصالح البلاد.. تلك المنفعة التي ستعود بالخير على الجميع.. فحجته مردود عليها قانونيا ودستوريا؛ لأن الدستور قد عرَّف المنفعة العامة - بوضوح - بأنها المنفعة التي لا يمكن الاستغناء عنها.. أو تلك المنفعة التي لا يمكن استبدالها.. فهل بناء مرسى للفنادق السياحية العائمة هو ما لا يمكن الاستغناء عنه؟ وهل بناء هذا المرسى في هذا المكان بالذات هو ما لا يمكن الاستبدال به أبدا أي مكان آخر؟ نحن هنا نتحدث عن بناء مرسى للفنادق العائمة.. ولا نتكلم عن بناء سد عالٍ جديد في المريس.. هذا المشروع الذي نتحدث عنه هنا هو أمر يمكن النقاش حوله بلا شك، خاصة مع وجود عدد من الحلول المتاحة وعدد من البدائل المطروحة وممكنة التنفيذ.. لكن الحكومة تجد في تنفيذ هذا المشروع تحديا لها.. ولا أحد يعرف لصالح من هم يعملون!

فكل حكومات العالم تعمل لصالح شعوبها.. إلا هذه الحكومة الرشيدة.. ربما لأن أعضاءها جميعا ليسوا سوى مجموعة من المنتفعين

والمرتزقة وأصحاب المصالح، لذا فمن غير المجدي محاولة إقناعهم بفساد مشروعهم، فهم كالجراد.. وإن كان الجراد أقل خطرا وأشد ضراوة.. فالجراد الذي يخشاه الجميع ويوحدون جهودهم لمحاربته يأكل الأخضر واليابس، لكنه مع ذلك يترك الأرض.. أما الجراد الحكومي فيأبى إلا أن يلتهم الأرض والزرع وينتهك حقوق البشر في الحياة.

لكن ما حدث في مدينة الأقصر حدث بحذافيره في رومانيا؛ فعندنا قام المحافظ بهدم المدينة ليعيد بناءها من جديد حتى تصبح مبانيها أكبر وشوارعها أنظف وحتى تصبح كما يصور له خياله قطعة من أوروبا.. وفي رومانيا قد قام تشاوشيسكو ببعض السياسات الخاطئة عندما قام بتطبيق رغبته في تحديث الريف الروماني قسرا، وقام بهدم القرى التقليدية وترحيل سكانها إلى مدن أكبر، وقد استلهم تشاوشيسكو مشروعاته الجنونية من الشرق وإعجابه بتجربة الصين، خاصة في أثناء الثورة الثقافية.. وكذلك تجربة كوريا الشمالية.. ودفعته هذه الرغبة القوية في تغيير وجه بلاده لتصبح نسخة جديدة من بيونج يانج بشوارعها المستقيمة الواسعة ومبانيها الضخمة، وفي سبيل ذلك أنفق الملايين من الدولارات في محاولة لإعادة بناء أحياء بأكملها، مما أدى إلى إغراق رومانيا في الديون حتى أوشكت على الإفلاس.. فلو كان تشاوشيسكو قد

أنفق تلك الأموال في مشروعات قومية كبيرة لعادت بالنفع على رومانيا وشعبها وجعلت منها مثالا يُحتذى.. وربما لتمنت الصين أن تكون مثل رومانيا.. لأن التطوير الحقيقي هو الذي يبدأ بالناس ولا ينتهي بهم.. التطوير لا يكون أبدا بشكل المباني ولا بمساحة الشوارع.. التطوير لا يكون أبدا بالتقليد الأعمى لدول أو أنظمة أخرى.. فإن كان هذا هو التطوير الذي يتحدث عنه سيادة اللواء، فمن الواضح أنه رجل بطيخ.. وفاسد كمان.. لأن من يرضى بالظلم إنسان ظالم وإن لم يظلم أحدا.. ومن يرضى بالفساد هو كذلك إنسان فاسد لأنه بطريقة أو بأخرى يشجع الفاسدين على فسادهم.. لقد أقفلت فمي وابتلعت لساني حتى لا أتكلم.. لكن الرجل لم يسكت.. فبعد لحظات نظر نحوي قائلا:

- والنبي يا محمود.. بعد ما نخلص الزيارة يا ريت تخلي السواق يلف بينا البلد شوية؛ لأن الأولاد نفسهم يشوفوا البلد بعد التطوير وعمليات التجميل.

- طلبات سيادتك أوامر (يا بطيخ).

وبدأنا الزيارة فعليا.. ودخلنا معبد الكرنك.. ومن الصرح الأول.. للفناء الأول.. ويا ريتنا ما دخلنا.. ولا بدأنا.. فعمك رمسيس واقف في انتظار كل الزوار ولا يمكن نعدي عليه من غير ما نقول له سلام (ده حتى

عيب يا جماعة.. مش كده ولا إيه؟) قدام رجليه ست واقفة.. والست دي المفروض إنها واحدة من بناته.. لكن نادرا ما تجد واحدا منا يعترف بذلك.. فالست الواقفة أمام قدميه مراته نفرتاري، ومن عنده اعتراض فليحتفظ به لنفسه؛ لأن الزبائن التي تفهم لن تحتاج لمرشد.. والزبائن التي لا تفهم – وهؤلاء بالمناسبة كثيرون – ولا يريدون أن يعرفوا الحقيقة كما يجب فالمهم.. قصة روشة على الماشي.. وكلمتين في السريع.. وهاها هاي.. والسلام ختام.. ويا سلام لو كان الزبائن مصريين.. يبقى خد عندك خفة دم.. واستظراف.

– ياه.. هو ده معبد الكرنك؟

– أيوه يا سيدي.. هو ده معبد الكرنك.

– أمال فين الحتة اللي كان فيها عمر الشريف بيجري من رشدي أباظة؟

– ولا تقريبا رشدي هو اللي كان بيجري وراه؟

– عمر الشريف مين؟ ورشدي أباظة مين؟ مفيش أحلى من فريدة فهمي لما كانت مع محمود رضا عند البحيرة المقدسة عايشين حياتهم.

ملحوظة مهمة جدا: عندما يكون عندك يومية مع واحد مصري

من عينة الإخوة إياهم بتوع عمر الشريف وفريدة فهمي، يا ريت تكون حافظ تاريخ السينما كويس، وبلاش وحياتك حكاية التاريخ الفرعوني ولا التاريخ اليوناني ولا التاريخ الروماني.. ولو تنسى التاريخ الإسلامي يبقى انت تمام، وبلاش كمان أسماء الملوك القدماء والفراعنة العظماء؛ لأن مالهومش أي لزمة عند الإخوة بتوع عمر الشريف ورشدي أباظة وفريدة فهمي ومحمود رضا (مع خالص احترامنا لهم وتقديرنا لإبداعهم وفنهم).. المهم تركز على المناظر السينمائية الشهيرة واللقطات المحفورة في ذاكرة الإخوة المواطنين المثقفين، ولو تحفظ أماكن التصوير يكون أحسن وأفضل؛ لأن الحاجات دي عند أمثالهم بتفرق كتير، وخلي بالك من الحاجات دي.. لأنها غالبا ما بتكون سؤال إجباري في يومية المصريين..

طب أنا عايز أحكي لك حاجة وانت تحكم بنفسك.. أول مرة طلعت فيها الأتوبيس وكان معايا مجموعة من الإخوة المصريين.. ويا دوب بقول يا هادي..

– السلام عليكم.. أخوكم محمود.

(غلطت أنا كده في حاجة؟)..

وفجأة سمعت صوت ضحكات هاها.. هاي.. شاطر يا واد يا

محمود.. وانت جاي لوحدك النهارده.. ولا جايب حد يا حودة معاك؟ قول يا روحي.. واوعى تنكسف.. وبعدها سمعت صوت غناء وطرب جاي من آخر الأتوبيس.. واديها رقص وزمر وطبل.

محمود إيه ده يا محمود؟

ده معبد الكرنك يا بهيرة..

محمود إيه ده يا محمود؟

ده معبد الأقصر يا شهيرة..

ومواليد التسعينات يمتنعون أكيد؛ لأن مواليد الثمانينات فقط والأكبر منهم سنا بكل تأكيد هم الذين يعرفون جيدا عما أتكلم.. (الأغنية كانت على وزن إعلان تليفزيوني تجاري مشهور جدا.. ظهر في التسعينات) عموما يوم وعدّى.. والعينة بينة يا جماعة.. بالذمة لماذا يتعب الواحد منا نفسه مع مثل هؤلاء؟

بلاش.. اسمع واحكم بنفسك على هذه القصة.. مرة واحدة زميلتنا اسمها نادية شكري.. طلعت مع مجموعة من العاملين في جهاز مالي حساس جدا (خلي بالك.. جهاز مالي حساس جدا) والمفروض إن أغلبية الناس في هذه المجموعة ناس كبار ومحترمين وعلى قدر من المسئولية

(هذا طبعا هو المفروض) ولكن بمجرد ما قالت لهم إن اسمها نادية شكري حتى قام واحد من هؤلاء المحترمين وقال لها:

- وأنا اسمي إيهاب نافع حضرتك.

وهاها.. هاي..

وبعدها قام واحد تاني.. وقدم نفسه:

- أنا بقى محسوبك سمير صبري.

وهاها.. هاي.

في الحقيقة لا أعرف لماذا هبطت على رأسي كل هذه الذكريات السوداء التي عشتها مع الزبائن المصريين.. هكذا وفجأة.. على الرغم من أنني قد التقيت أيضا ومن خلال عملي كمرشد بنخبة من المصريين المثقفين والمحترمين، لكن منذ أن رأيت سيادة اللواء وعائلته.. لا أستطيع أن أتذكر إلا المسيئين منهم فقط.. ولا غير.

عموما ولأن إحساسي لا يكذب كثيرا ولا يخيب كثيرا، فالرجل من الواضح أنه فعلا بطيخ.. والحقيقة المحضة لا تصلح أبدا مع أمثاله؛ لذا فقد قررت أن أخالف ضميري الأثري وأخلي الست الواقفة أمام أرجل الملك المعظم رمسيس التاني زوجته المبجلة نفرتاري.. وربنا يغفرها لي..

ولكن سيادته سألني سؤالا مهما:

- هي الست دي مدفونة في أي مقبرة؟

- في البر الغربي سيادتك في وادي الملكات.

- خلاص نروح نزورها بكرة.. ماشي الكلام؟

- كان على عيني سيادتك؛ لأن المقبرة مغلقة منذ فترة طويلة.

لكن من الممكن أن نزورها في حالتين: إما أنك تدفع ما يعادل أربعة آلاف دولار.. تقريبا حوالي أربعة وعشرين ألفا بالمصري.. وإما أنك تكون صديقا للسيد الشهير (المسئول الأول عن الآثار في مصر).

ويا ليتني ما تكلمت.. فمن الواضح أني حطيت صباعي في الدمل لأن الراجل هاج وماج وثار وصرخ في وجهي غاضبا:

- انت يابني بتتكلم في إيه؟ عشرين ألف إيه اللي بتتكلم فيها؟ ده أنا بصرفهم في أقل من يوم..

وعلى الرغم من تلك الطريقة الفظة التي كان يتكلم بها.. وعلى الرغم من كل ثورة الغضب تلك التي اجتاحته فجأة.. وعلى الرغم من أن الموضوع لم يكن يستدعي أبدا غضبه.. فإنه هناك مجموعة من الحقائق لا بد من ذكرها..

أولا: أنني لم أقصد أبدا الإساءة له أو الإساءة لشخصه، حتى إن كان سيادته واقف في زوري بالعرض وليس بالطول..

ثانيا: أنني لم أخبر أحدا من قبل بهذا الموضوع إلا وتحول الموضوع إلى مادة للسخرية وسبب للضحك والهزار على الرغم من أن هؤلاء الذين أخبرتهم من قبل منهم وزراء وسفراء وأثرياء وأصحاب مصانع ومليونيرات عن حق، لكنهم جميعا قد اتفقوا على شيء واحد مهم على الرغم من أنهم لا يعرفون بعضهم البعض وربما لم يلتق أحدهم الآخر في يوم من الأيام، إلا أنهم قد اتفقوا على أنه مهما بلغ جمال المقبرة ومهما كان معهم من أموال طائلة مكدسة في البنوك فإن صرف مبلغ كهذا على مجرد رؤية مقبرة هو نوع من السفه لا أكثر.. وإن كان لا مانع لديهم من مجاملة صديق ما.. أو ربما مسئول ما وقبول دعوته لزيارة المقبرة.. وإن كان كثير منهم يبلغونني بأنهم وعلى الرغم من رغبتهم الجمة في زيارة المقبرة الأسطورة فإنهم سيتركون هذا الأمر لحين يقومون بتجميع المبلغ وتحويشه.. وهذا طبعا على سبيل الدعابة ليس إلا؛ لأن الغالبية منهم بالفعل يملكونه وبلا أدنى شك.. ولم أرَ واحدا منهم يهيج كثور في مرعى كما فعل سيادة اللواء..

ثالثا: الأخ اللواء أبو فلوس.. تلك التي لا يعلم مصدرها إلا الله..

من الواضح جدا أنه لا يعرف شيئا مهما، هو أن أغلبية سكان مصر يعيشون تحت خط الفقر وفي الوقت الذي لا يجد فيه البعض منهم عشرين جنيها.. بيصرف سيادته عشرين ألف جنيه وفي أقل من يوم.. فإما أن سيادته رجل حرامي! وإما أنه رجل محظوظ ولم يتعب في جمع كل تلك الفلوس التي يتباهى بها.. وإما أنه مجرد رجل عديم الإحساس وأناني.. وإما أنه واحد فشَّار كبير لا أكثر ولا أقل ولكن على الرغم من «أولا وثانيا وثالثا»، فهذا الرجل لازم يترد عليه وبقوة، لكن قلت لنفسي لا داعي أبدا لأن أفسد الزيارة وأفسد عمل شوكت صديقي الذي لم أعد أطيقه، ومن ثَمَّ أجبرت نفسي مُكرهًا على الصمت.. وتقدمنا بضع خطوات قليلة.. كانت أثقل على نفسي من أمد.. وأنا أحاول جاهدا الحفاظ على هدوئي والحفاظ على رباطة جأشي وحتى أبعد قليلا عن هذا التوتر سألته قائلا أي كلام:

– هو سيادتك زرت الأقصر كام مرة قبل كده؟

(وكأن السؤال لسعه المرة دي كمان.. هو في إيه؟ هو سيادته بيتلكك ولا إيه؟)..

– أنا كنت عايش فيها هنا مع أهلي.

(قالها بكل حدة)..

– خير إن شاء الله..

– أصل بابا كان ماسك المطار..

(مش فاهم ماسكه ازاي يعني.. يمكن زي ما عبد الحليم كان ماسك الهوا.. ما علينا.. نعديها المرة دي كمان)..

– طب وحضرته عاش هنا كتير؟

– عاش فيها لدرجة إن الناس كلهم هنا فاكرينه وبيذكروه دايما بالخير..

– هو اسم سيادته إيه؟

– اسمه اللواء عبد الكريم.

(ولا عمري سمعت حد فاكره.. ولا حد بيتكلم عنه.. لا بخير ولا بشر)..

– يظهر إن سيادته عمل للناس حاجات كتير علشان يفتكروه.. ويذكروه دايما بالخير..

– الصراحة الناس عمرها ما شافت حد زيه.

(ودا على أساس إنه كائن فضائي حضرته).

– تعرف إنه كان بيعزم أهل البلد كلهم عندنا في البيت كل يوم

خميس.

(ابتدا الفشر على أصله.. كان بيعزم أهل البلد كلهم في بيته كل خميس.. وده على أساس إن أهل البلد دول كان عددهم كام نفر، يا دوبك يتعدوا على صوابع اليد.. أو على أساس إنه كان بيعزمهم في ساحة المطار! أو على أساس إن سيادته كان موظف بدرجة مليونير.. وساحة البيت عنده تتسع لأهل البلد جميعا وفي وقت واحد.. ولا العزومة من الآخر كانت حاجة ببلاش كده.. مرارتي قربت تنفقع من كلام سيادته.. منك لله يا شوكت.. يا رب هون.

ولكن على الرغم من أن الأب لا يكف عن الكلام وتشاركه الابنة والزوجة أحيانا سباق الفشر.. فإن هناك اثنين لم أسمع صوتهما إلا فيما ندر، هما: الابن الشاب وزوج أخته، ولم يكن هناك من وجه شبه بينهما إلا أن كليهما صامت أغلب الوقت وإن كان صمتهما تختلف أسبابه..

فالابن في صمته كان يبدو وكأنه كاره لكل ما حوله، كاره لتلك المظاهر الكاذبة التي تحيط بحياته أو ربما أنه لا يجد فيها أي سبب للحديث عنها كما يفعل والده المبجل سيادة اللواء.. والسيدة الفضلى أمه طيلة الوقت، ربما لأنه لم يكن له فضل في وجودها، كما أنه لم يكن أبدا سببا فيها.. وأكبر دليل على رفضه القبول بتلك المظاهر أنه يعيش في مكان

خاص به مستقلا بحياته.. يعمل في مجال الهندسة المعمارية.. يعمل وينفق من دخله الخاص على أسرته الصغيرة التي كان من الواضح كم هي أسرة متفاهمة وسعيدة.. فلديه زوجة جميلة وحبوبة بجد طيبة ومتواضعة إلى أبعد حد.. بل إنها الإنسان الوحيد في هذه الزمرة الذي يمنحك شعورا طاغيا بالراحة التامة فقط لمجرد وجودها في نفس المكان، لا تتكلم بلا سبب كما يفعلون، لكنها تشاركنا الحديث من حين لآخر بكلمات هادئة جدا وعاقلة وواثقة وتدل على شخصية صاحبتها بلا أدنى شك..

أما زوج الأخت فقد كان واضحا تماما وجليا أنه إنسان لا حول له ولا قوة (خيال مآتة).. وإن كانت ملامح وجهه تفضح مدى معاناته في تمثيل دور الزوج المحب العاشق الراضي بكل ما في حياته الزوجية من منغصات حتى يضمن البقاء أطول وقت ممكن في عصمة الابنة الوحيدة الحبوبة وإلا أنزلت عليه جام غضبها.. واستبدلت به زوجا آخر حالا وفورا يعيش في ظلها ويمسك بذيلها، لكنه مجرد ممثل فاشل.. فما إن سألته عن طبيعة عمله فقط لأعرف لأي نوع من الرجال ينتمي تقهقر إلى الخلف وتراجع خطوتين للوراء.. ولم أكن فعلا في حاجة إلى أي إجابة لأعرف أي نوع من الرجال كان.. فقط وهبتني الحياة نوعا من الخبرة أستطيع من خلاله قراءة الوجوه ومعرفة دخائل النفوس.

المهم أننا قد اقتربنا من قدس الأقداس، فرجع سيادته يؤكد مرة ثانية وربما لن تكون أيضا المرة الأخيرة ووجَّه كلامه لي قائلاً بكل كبر و"عنطزة":

- إياك تنسى تفرجنا على البلد يا أبو حنفي.

- هو حضرتك تحب تتفرج على حاجة معينة في البلد؟

- لا.. لكن أحب أفرج الأولاد على المجهود الجبار في تطوير البلد (يا سلام يا أولاد على حكاية المجهود الجبار) أنا أعرف ناس كتير من الذين أسهموا في عملية التطوير.

(وأنا أعرف ناس كتير بيوتهم اتخربت بسبب التطوير).

- واضح طبعا إن سيادتك تعرفهم شخصيا.

فقال وقد أساء الظن بي كما يحلو له دوما معتقدا أنني ربما كنت أخصه بشيء من الإطراء.. الله وحده يعلم بأنه لم يكن ليخطر لي على بال:

- طبعا أعرفهم شخصيا.. وعلى صلة وثيقة بكل الناس المهمين وجميع السادة المسئولين في البلد.

(حصلنا الرعب سيادتك).

– وطبعا حضرتك أكيد تعرف الرجل الكبير؟

فرد في تهكم وكأنه يجاريني:

– قصدك رمسيس ولا أبو الهول؟

فهززت كتفي بلا أدنى مبالاة وكأني أقول له: الأمر راجع لك.

فقال وهو فخور بنفسه وقد انتفش ريش غروره:

– بالنسبة للملك المعظم المبجل رمسيس، فمعرفتي به ليست بهذه القوة كما قد تظن، لكني على صلة قوية جدا بسيادة اللواء الدكتور المحافظ.

(فعلا.. الطيور على أشكالها تقع).

ولكن على الرغم من غيظي فإنني تظاهرت بغير ذلك ورسمت فوق وجهي نظرة إعجاب تركت أثرها في نفس الرجل الواهم.. ونظرة إكبار كاذب أعجب بها كثيرا.. وقلت له في لهجة شبه مسرحية وإن كان بباطنها شيء من السخرية لم يلحظها الرجل «البطيخ»:

– ياه.. سيادة المحافظ مرة واحدة؟!

يا أهلا.. يا أهلا..

يا مرحب.. يا مرحب..

وكان ناقص عليَّ أشد طرف بنطلوني وأقول له يـادي النـور يـادي الهنا لأني وللأسف الشديد لم أكن يومها متلفحا بجلابية المرحوم أبويـا.. وبلع سيادته الطعم بكل سهولة.. وقال في غير قليل من التيه:

– أنا وسيادته كنا دفعة واحدة في كلية الشرطة.

فقلت في شيء من التهكم.. لم يلحظه كالعادة:

– دفعة شكلها جامد.. كلها ناس أفاضل..

– دفعة مشهورة جدا وأكيد سمعت عنهـا لأنهـا كانـت علـى اسـم اللواء يسري سمعان..

فهززت رأسي بعنف.. هزة أسف (فإن كان خريجـو هـذه الدفعـة كلهم من أمثال سيادة اللواء عبد العظيم وسيادة اللواء الـدكتور المحـافظ.. فلعل الرجل كان رئيس عصابة، وإلا ما كانت الدفعـة الـتي تحمـل اسمـه تضم مثل هؤلاء الرجال).

– هل سمعت باسم اللواء يسري سمعان من قبل؟ إنـه رجـل مثـال للنزاهة والاستقامة وعنوان للإخلاص والأمانة.

فقلت للرجل وقد استبد بي الغيظ وبلغ مبلغا لا بأس به:

– للأسف سيادتك لم يكن لي هذا الشرف.

فقال في غير قليل من التعجب وكأني قد أخطأت خطأ لا يغتفر:

– لا أصدق أبدا أنك لم تسمع به من قبل!

فقلت لسيادته:

– عموما من الممكن أن تقول إنني أستطيع أن أرى سيادته أمام عيني.. حتى إن لم أسمع بسيرته العطرة من قبل فلا بد أن مبادئه العظيمة وأخلاقه الفضلى قد أورثها لبعض من طلبته المخلصين.. أمثال حضرتك وسيادة اللواء البيه المحافظ.

فقال وقد انتفخت أوداجه:

– معك كل الحق.. فقد كان لنا الشرف في التتلمذ على يد سيادته قبل أن تغتاله يد الشر الآثمة.

(يد الشر الآثمة؟ لو بس حد يفكرني اليد دي كانت في أي فيلم)؛ لأني لا أستطيع أن أرى يدا أكثر شرا ولا أكثر إثما من تلك اليد التي امتدت إلى مدينتي العريقة فحوّلتها من تراث عالمي وأثر تاريخي وإرث إنساني يفخر به العالم أجمع.. إلى مجرد مسخ من المباني الخرسانية.. مبانٍ جديدة وحديثة ولكنها أيضا مبانٍ لقيطة بلا تاريخ.. وبلا ذكريات.. وبلا حكايات.. ومثلما يفعل اليهود بالمدن الفلسطينية العريقة تلك التي

يقومون بتهويدها وتشويه شخصيتها قاموا بسلب مدينتي من أهم ما لديها.. قاموا بهدم مبانيها القديمة ذات الطابع الفريد وقاموا بتجريدها من أصالتها وعراقتها لتصبح مدينة جديدة وغريبة حتى عن أهلها.. مدينة بها شوارع واسعة جدا.. ونظيفة من كل شيء حتى من أهلها.. شوارع بلا طعم وبلا معنى.. شوارع فقدت الدفء والحميمية.. واكتست برداء من الحداثة.. وتلفحت بثوب العصرية قاسية القلب (هذا إن كان لها قلب).. وبكل وقاحة وبوجه مكشوف يواجهون تساؤلات حائرة تطوف بعقولنا تبدأ جميعها بـ«كيف»؟ و«لماذا»؟ فيقولون لنا: سوف نجعل من مدينتكم قطعة من أوروبا.. وكل ذلك في صالحكم أنتم.. فبعد أن تصبح مدينتكم أوروبية ستنافس باريس وروما وغرناطة وصقلية.. وإن كنت لا أعرف بما ستنافسها مدينتنا؛ فباريس وروما وغرناطة وصقلية.. كل هذه المدن تفاخر بمبانيها القديمة أكثر مما تفاخر بناطحات السحاب وتفاخر بوجود الأزقة والحواري القديمة التي تحمل عبق التاريخ كما تفاخر بشوارعها الواسعة والجديدة، ولكن ماذا عنا نحن؟ بماذا سنفاخر؟ فلا مباني قديمة نمتلك ولا ناطحات سحاب استطعنا أن نمتلك.. لقد أصبحنا كالغراب الذي حجل عندما أراد أن يقلد الطاووس في مشيته فلم يصبح كالطاووس، يمشي في خيلاء، ولا حتى استطاع أن يمشي كما كان..

ونحن أيضا لم نصبح قطعة من أوروبا، كما لم نعد كما كنا من قبلُ قطعة من مصر.. إن زوار المدينة كانوا يأتون لزيارتها فقط لأنها لا تشبه أوروبا.. وقد نجح محافظنا الهمام في تشويه شخصيتنا، فهل هذا هو ما يجب علينا أن نشكر سيادته من أجله؟ وهل يجب علينا أن نشكره على هذا التشويه والتخريب المتعمد، أم على الفساد الذي طغى على كل شيء؟

ألم يكن سيادة اللواء الدكتور المحافظ هو سبب نكبتنا وسبب مصيبتنا؟ فهو الذي أهدر ملايين الدولارات في عمليات هدم وبناء غير ضرورية.. وهو الذي شرد آلاف الأسر من أهل البلد.. وهو الذي هدم المدارس الأزهرية.. وهو الذي هدم الإدارات التعليمية.. وهو الذي هدم المنشآت الحكومية حتى تتحول أراضيها إلى فنادق ومنتجعات سياحية.

ثم ماذا عن أموال الصناديق الخاصة التي نُهبت؟ وماذا عن البيوت التي هُدمت فوق رءوس أصحابها؟ وماذا عن إجبار الأهالي على هجر بيوتهم لتُهدم بالقوة بعد تدخل قوات الأمن وأمن الدولة ورجال الشرطة؟ وماذا عن حبس الرجال واحتجاز النساء؟ وماذا عن قطع المياه عنهم وقطع الكهرباء؟ وماذا عن تلك التعويضات المتفاوتة.. التي كانت توزع على حسب الميل والهوى وبغض النظر عن القيمة غير العادلة للتعويضات، وبغض النظر عن الجزء المقتطع لصالح الزبانية، فإن الغالبية من أهل المدينة لم

يحصلوا حتى الآن على حقوقهم المسلوبة.. ثم ماذا عن إهدار الملايين في الأسواق السياحية مثل سوق سافوي وسوق مرحبا وأسواق الكرنك؟ والأخيرة بالذات هي أكبر دليل على الفساد؛ فبعد أن نزعوا ملكية المحال المقامة هناك عنوة للمنفعة العامة قاموا بتأجيرها لأحد المستثمرين ليؤجرها مرة أخرى لأصحابها الأصليين وبأضعاف قيمتها، فهل هناك فساد أكبر من هذا؟ ثم ماذا عن هدم كل المباني الأثرية والتراثية؟ وماذا عن هدم بيت الأثري الفرنسي لوجران مفتش آثار الكرنك منذ **1895** وحتى **1917**م؟ وهو الذي عُرف بعاشق الأقصر حتى الموت والذي أعاد بناء صالة الأعمدة في معبد الكرنك.. وهو الذي درس طرق البناء في مصر القديمة.. والذي حاكى المصريين القدماء في طريقة البناء فرفع تيجان العمدة علي أجدور صاعد كما فعلوا.. إنه الرجل الذي اكتشف خبيئة الكرنك في **1903** التي تحتوي على أكثر من عشرين ألف قطعة، ولولا لوجران لما سمعنا أبدا بالفرعون الذهبي، فهو أول من اكتشف اسم الملك توت عنخ آمون.. وأول من حاول البحث عن مقبرته في وادي الملوك، وللرجل الكثير من المؤلفات التي تتناول تاريخ الأقصر.. هذا إلى جانب إهتمامه بدراسة الحياة اليومية فيها.. لكن من الواضح أن تاريخ الرجل لم يشفع له أبدا عند سيادة اللواء الدكتور المحافظ الذي أمر بهدم بيته ولم يتصدَّ لقراره

المجحف أحد.. بل على العكس هلل الجميع.. وللأسف كان أول هؤلاء المهللين الأثريين المصريين الذين رأوها فرصة ذهبية للقضاء على نفوذ الأثريين الفرنسيين المسيطرين وبكل قوة على كل أعمال الحفر والتنقيب في معبد الكرنك، لكنها لم تكن ضربة قاضية لتاريخ الفرنسيين فقط، بل كانت أيضا قاصمة لتاريخ الرجل والبلد الذي عاش ومات عاشقا له وكأنهم ما وافقوا إلا للانتقام من لوجران شخصيا.. وعلى الرغم من أن بيت الأثري الإنجليزي هيوارد كارتر أحدث من بيت لوجران فإنه قد تحول إلى متحف، ألم يكن الأجدر بسيادة المحافظ أن يبقى على بيت لوجران؟ ألم يجدر به أن يحوله أيضا إلى مزار سياحي مثلما فعل مع منزل كارتر؟ ثم ماذا كان سيضيره من بقاء المنزل في مكانه؟

ثم ماذا عن هدم قصر يسي باشا أندراوس؟ القصر الذي كان مبنيا على الطراز الإيطالي واستقبل مشاهير القرن الماضي وأعلامه من رجال السياسة والإعلام وعلية القوم، خاصة بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وقد كان واجهة مشرفة لمدينة الأقصر.. لكن الحزب الوطني قد احتله لفترة قبل أن يأمر سيادة اللواء المحافظ بهدمه، لماذا قام سيادة المحافظ بهدم القصر؟ هل قام بهدمه عن جهل بقيمته التاريخية، أم قام بهدمه عن جهل بقيمته كتحفة معمارية، أم قام بهدمه طمعا في الذهب

المخبأ تحته كما كان يشيع العامة كثيرا في أحاديثهم؟

وماذا عن قصر نجيب بك ميخائيل بشارة، المعروف بقصر نفرتاري؟ هذا القصر المبني على طراز الباروك الإيطالي الذي تم بناؤه منذ ما يقرب من مائة عام.. وإن كانت نكبته قد بدأت مبكرا في عام **1950**م عندما تم تسليم القصر إلى وزارة المعارف ليصبح مجرد مدرسة ابتدائية أميرية للبنين، ثم يتم تحويله فيما بعد إلى معهد لترميم الآثار حتى يأتي اللواء الدكتور المحافظ ويأمر بهدمه ليحوله إلى مجرد أرض فضاء.. فهل هذا يُعقل؟ ولصالح من كل هذا الخراب؟

ثم ماذا عن مبنى قصر ثقافة حسن فتحي الذي قام سيادة المحافظ بهدمه على الرغم من أنه في حد ذاته مزار سياحي فريد من نوعه وقبلة لمحبي فن المعمار؟ وماذا عن قصر الثقافة الجديد الذي تم هدمه أيضا على الرغم من أنه كلف خزانة الدولة ملايين الجنيهات وعلى الرغم من أنهم لم ينتهوا من بنائه ولم يفتتحوه بعد، لكن سيادة المحافظ أمر بهدمه هكذا وبجرة قلم؟ وماذا عن هدم مبنى الـ«ونتر بالاس» الجديد؟ وماذا عن هدم منزل البعثة الأثرية الفرنسية؟ وماذا عن هدم مسجد المقشقش الأثري الذي يتجاوز عمره بضع مئات من السنين؟ وماذا عن تلك الكتابة النسخية الشهيرة التي كانت محفورة على بابه الخشبي؟ إلى أين ذهبت؟ وما

مصيرها الآن؟ فهل أخيرا عرفوا قيمة شيء وحافظوا عليه؟ ربما حفظوا الباب في متحف.. أو لعلهم احتفظوا به في أحد المخازن.. أو لعل مصيره الآن قد صار بيد مقاول الهدم.. أو ربما أنه لم يعد له مصير بعد اليوم..

سيادة اللواء يفاخر بصداقته للسيد المحافظ ويظن أنني سأرفع له قبعتي وأنحني احتراما؛ وذلك لأنه لا يستطيع أن يفهم شيئا مهما هو أنني كواحد من هذا البلد الذي شوه ودمر على يد سيادة اللواء الدكتور المحافظ والذي أصبح نذير شؤم أينما حل.. والذي لا أتمنى من الله إلا أن تتخطفه مصيبة تكون عاجلة ونافذة لتنقذنا منه وتنقذ ما تبقى من بلدنا من شره..

أخيرا أوشكنا على الانتهاء؛ فقد اقتربنا من البحيرة المقدسة ووقفنا معًا في تلك الساحة الكبيرة الواسعة حيث الجزء العلوي من مسلة الملكة حتشبسوت والجعران المقدس والأطلال وبقايا الأحجار.. ومن بعيد لمح الجميع تلك الرافعة الكبيرة التي أصبحت جزءا من المعبد فسمعت صوتا يسأل عن الرافعة:

– يا ترى بيعملوا إيه بالرافعة دي؟

– بيحاولوا يعيدوا بناء الصرح المتهدم.

– والمفروض إمتى يخلصوا؟

– المفروض كانوا خلصوا من زمان.

– وإيه المانع من إنهم يخلصوا؟

– للأسف.. فلوسهم خلصت.. إيه رأيك لو تسلفنا سيادتك يمكن يقدروا يخلصوا شغلهم؟ (طب أنا كده غلطت في إيه؟).

فجأة هبَّت رياح الخماسين وانقلبت الدنيا فوقاني تحتاني.. وعيون سيادة اللواء طلعت من مكانها وقلبت ألوان أحمر وأزرق وأخضر.. وابتدا يرغي ويزبد:

– فلوس؟ فلوس إيه يابني؟

عيب كده.. لا بجد عيب.. ده أنا اللي بعمل الفلوس.

كان نفسي أعرف هو أنا غلطت في إيه؟ حتى عندما كنت في شدة غيظي منه كنت أحاول ألا أنفجر فيه.. لكن ساعتها كنت بجد بهزر.. وبعدين ألم يقل لي إنه بيعمل الفلوس؟ هل هذا على أساس إنه مطبعة البنك المركزي؟ صحيح لو كان حضرته في مصر كان قلنا إنه مثلا محافظ البنك المركزي، وعلى الرغم من أنني لا أعرف السبب الذي يجعل لواء شرطة يعيش في أمريكا منذ أكثر من عشرين عاما.. حتى من قبل أن يصبح

لواء.

وبعدين لو هو بيعمل فلوس.. ما الذي يضيره في أن يسلفنا بعضا منها؟ من ساعة ما ابتدينا الزيارة وأنا بحاول أمسك نفسي.. يبقى هي دي آخرتها.. يظهر إن حد قال له إنه فاقع مرارتي منذ أن رأيته وهو لا يتكلم إلا عن نفسه وعياله وفلوسه وأصحابه.. خصوصا أصحابه المشهورين قوى والمحبوبين جدا كما يظن.. طب سيادة اللواء المحافظ قلنا صدفة إنه يعرف واحد مثله فماذا عن عدنان الحرامي الذي سألني عنه منذ لحظات؟ وعلى الرغم من أن البلد ليس فيه إلا عدنان واحد يعرفه الجميع أولا.. لأن اسمه ليس من الأسماء واسعة الانتشار.. وربما كان على حد علمي هو الرجل الوحيد في المدينة الذي يُعرف بهذا الاسم ومع ذلك سألته مستفسرا في غير قليل من الاستعباط:

– عدنان مين سيادتك؟

– كيف لا تعرفه؟ إنه صاحب أكبر محلات أحذية في المدينة.

قالها وكأنه قد زهق وتعب من جهلي بعلية القوم.

فقلت وعلى وجهي غير قليل من القرف:

– نعم أعرفه.. ومن في البلد لا يعرفه؟

وكدت أقول لسيادته: قصدك عدنان الحرامي (كانت على طرف لساني) لكني أكملت حديثي معه في انبهار مصطنع.

– وحضرتك تعرف عدنان باشا منين؟

قلتها وفي قلبي ابتسامة كبيرة من غباء الرجل من اللقب الذي وهبته لصديقه الباشا الحرامي.. فمن الواضح أنهم ليسوا إلا مجموعة من اللصوص.. فلا الأموال القذرة تستطيع أن تطهرهم من الدنس.. ولا الملابس الفاخرة تستطيع أن تخفي حقيقتهم.. كما لا تستطيع أن تخفي عيوبهم.. له الحق في أن يغضب من مجرد مزحة؛ لأن من فوق رأسه بطحة يتحسسها.. فالرجل لا يعرف من أهل البلدة إلا موظفا فاسدا مهما كانت درجته الوظيفية.. و«حرامي» مفضوحا أمره بين أغلب الناس كون ثروته كلها من نبش المقابر وسرقة الآثار.. ولقد كان يكفيني فقط قصة تطوير المدينة وحكاية صداقة سيادة اللواء بالدكتور المحافظ لأمسح بسيادته تراب المَعْبد.. لكن فضلت أن أكظم غيظي.. ولكن اليوم لم ينتهِ على خير تماما مثلما توقعت.. لكني تعلمت من قصتي مع سيادة اللواء شيئا مهما جدا.. الذي على أثره اتخذت قرارا لا رجعة فيه.. توبة إن كنت أشتغل مع شوكت تاني.. وكفاية إنه كان السبب في معرفتي باللواء الحقاني.

القصة الثانية

سليشيا

يوم الأربعاء الماضي كان يوما شديد الحرارة.. فقد اجتاحت البلاد موجة حارة وغير متوقعة.. قادمة من أواسط قارة آسيا وغرب شبه الجزيرة الهندية.. متحدة مع الرياح الموسمية الحارقة القادمة إلينا.. من صحراء شبه الجزيرة العربية، كما يقول خبراء الأرصاد الجوية في مثل هذا الوقت من كل عام.. وكأن أتون الشمس الملتهبة في أواخر شهر يوليو لم يكن وحده يكفينا في جنوب الصعيد فاتفقت كل من شبه الجزيرة الهندية وشبه الجزيرة العربية.. على الرغم من أنهما قليلا ما تتفقان.. وأرسلتا إلينا بلفحة جهنمية من الحرارة والسخونة الشديدة التي تشوي اللحم فوق أسياخ الحديد. وليكن الرب في عون البيضاوات الحسناوات القادمات إلينا من أقصى الشمال، لا لحاجتهن للعمل ولا حتى لرغبتهن في الثراء على حساب أبناء البلد الذي لا يجد أغلب أبنائه عملا لهم.. بل فقط جئن ليعلنَّ عن سخطهن ومدى تأففهن من سوء الأحوال الجوية عندنا وروعة الهواء المنعش ساعة العصاري على كورنيش بلدهم، حتى إن لم يكن في بلدهم أي كورنيش.. اللهم إلا كورنيش الترع والمصارف التي لم تعد حتى فيها مياه تكفي لري الحقول والغيطان التي جففها النظام منذ أمد بعيد وحوَّلها إلى مجرد مصارف للمجاري ومقالب للقمامة ومثوى للجيف وجثث للحيوانات، وحوَّل مسار ما كان فيها من مياه جارية إلى حيث

يسكن رجال النظام لري تلك الحدائق التي تحيط بقصورهم المنيعة التي بُنيت على مشارف الصحراء ليستجموا فيها بعيدا عن بقية الشعب من الغوغاء.. فماتت الأراضي الزراعية عطشا وخرج الناس يبحثون عن قطرة ماء.. نعم خرجوا يحملون فوق رءوسهم الجراكن وفي أيديهم الجرادل.. وأصبحوا يقفون طابورا طويلا كل يوم من أجل نقطة ماء.. بمعنى آخر لا كورنيش جميل ولا هواء عليل ولا يحزنون.

وعموما.. وبعيدا عن الكورنيش والوجه الجميل، فالكارثة بحق لا تحتاج إلى أي تجميل، فمن الذي يصدق شيئا كهذا؟ من الذي يصدق أن في مصر بلد النيل من لا يجد ماء ليروي أرضه ولا حتى ليروي عطشه؟ فعندما رأيتهم على شاشة التلفاز حمدت الله وسجدت له شكرا.. فما زال لدينا في مصر ماء.. وما زال النيل يجري.. وقد ظننت أنهم ما جاءوا إلا من مكانٍ ما بعيد ضربه فيضان أو ربما أصابه وباء فحل به القحط والجفاف.. لكن الخبر نزل على رأسي كالصاعقة.. هؤلاء هم أبناء مصر ما زال يجري عندهم النيل.. ولكن لم يعد لديهم ماء.. كيف حدث هذا ونحن في القرن الحادي والعشرين؟ نعم.. كيف حدث هذا ونحن أول دولة في العالم لديها حكومة إلكترونية؟ (حكومة الرجل النظيف) تلك الحكومة التي سبقنا بها كل الدول المتقدمة.. من أمريكا لليابان للصين..

ومرورا بالدول الأوروبية.. والدول النفطية.. وكذلك النووية.. لكن أرجوكم لا تنزعجوا.. فالحكومة عندنا حكومة إلكترونية لا تعرف إلا لغة الحاسوب ولا تعمل إلا بواسطة الأقمار الصناعية تلك التي لا ترصد إلا الأحياء الراقية والعمارات الضخمة والحدائق الغناء.. وما خلفها من قصور فخمة.. حكومتنا النظيفة الرشيدة لا تهتم بتوافه الأمور.. فما الذي يعنيها إذا شرب فيها المواطن المصري البسيط ماء ملوثا بمياه الصرف، أو حتى ماء ملوثا بمياه المجاري، أو حتى إذا لم يجد المواطن المصري ماء ليشربه من الأساس؟

فالقضية – وبحق – قضية ثانوية ولا تستحق من حكومتنا الإلكترونية الرشيدة أي اهتمام؛ فهناك أشياء كثيرة تشغل بالها أهم من وجود الماء في بلد أشهر ما فيه هو الماء.. بلد من فيض مائه حفر نهرا صناعيا ليمد جيرانه المحرومين في الصحراء بالماء، حتى إن كان في أرضها من لا يجد هذا الماء.. لك الله يا مصر..

من الواضح أن حرارة الشمس كانت هي السبب الرئيسي والمباشر في تفعيل هذا الكم الهائل من الأفكار والهموم في رأسي، فكلما ازدادت أشعتها لهيبا قلبت في رأسي تلك الأشياء، لكن على الرغم من أن أغلب الزميلات البيضاوات (اللهم إلا المحترمات منهن) قادمات إلينا من

المستنقعات والعشوائيات.. والمحترمات هنا أعني بهن من جئن من المستنقعات أو حتى من جئن من الأحراش والملاحات.. لا فرق عندي من أين جئن.. لأن هذا ليس بدليل على شيء؛ فالإنسان المحترم محترم أينما كان وحيثما كان.. فالمحترمات هنا أعني بهن فقط من يعرفن قيمة العمل.. فالمحترمات هن من يجتهدن في العمل ويبذلن الجهد فيه بلا تعالٍ ولا غرور.. أما الغالبية فهن من اللاتي لا يعتمدن في عملهن سوى على النظرة الجريئة والابتسامة الصريحة وعقدة أمثالنا من الرجال أصحاب البشرة السمراء الداكنة؛ إذ إن أغلبهن يعتقدن أنهن الأفضل والأرقى من الجنس الصعيدي المتخلف الذي ما جاءوا إليه إلا ليساعدوه في التطور والارتقاء.. وما كنت لأتذكر أمثالهن أبدا في هذا الجو الخانق إلا عندما رأيت الأخت رجاء.. وما أدراكم بالأخت رجاء؟ لقد كانت تجلس أمامي مباشرة وتضع ساقا فوق ساق.

«شمبانزي» أبيض.. لا بد أن يكون جميلا؛ لأنه قد هبط علينا من الشمال.. بنت ناس بصحيح.. لا تتحدث إلا تأففا ومن خلال جيوبها الأنفية.. ولا تنسى أبدا أن تذكرنا بين الفينة والأخرى بحرارة الجو عندنا.. وكأننا يا سبحان الله ما كنا لنعرف بتلك المعلومة إلا بفضل إشارتها الكريمة.. كما لا تنسى أبدا أن تشنف أسماعنا بقصة عظيمة عن

مدى تواضعها الجم وعن مدى التضحية التي قامت بها لتقبل الحضور للضرورة.. بعدما أرسلت الشركة في طلبها لتأتي وعلى وجه السرعة.. وقبلت يديها أيضا وقدميها لتنقذها من هذا الموقف الحرج؛ لأن الصعيد ليس به من الكفاءات من يصلح لمثل هذه المهمة، ولولا حاجتهم الماسة إليها ما كانت لتترك «مامي وبابي» وحدهما في شاليه الساحل الشمالي (يا رب عِدنا بواحد مثله على أن يكون «شاليه» بجد.. وليس كمثل هذا الذي تصفه الأخت رجاء) بصراحة شديدة.. لم أكن أعرف من قبل أن حاجة الإنسان المادية للعمل قد أصبحت عيبا هذه الأيام.. العمل ليس ترفا وليس تفضلا من أحد على أحد.. العمل عبادة.. لسد حاجة الإنسان بدلا من العوز والاحتياج.. بل في الحقيقة العمل فرض وفريضة على كل إنسان بالغ وعاقل، حتى إن كان لديه ما يكفيه.. أو حتى كان لديه ما يزيد.. فإذا كانت الأخت رجاء ومثيلاتها يعملن وهن لسن في حاجة للعمل فليتركنه لمن يحتاجه ويستحقه.. وإذا كانت زميلتي غير العزيزة تعتقد أنها لو لم تأتِ لانقلبت الدنيا رأسا على عقب فعليها أن تدرك حجمها الحقيقي.. وعليها ألا تخدع نفسها أكثر من هذا، فكل من يعمل في المجال السياحي يعرف جيدا أن الفرصة ليست دائما منصفة ولا تأتي دوما لمن يستحقها.

فهناك الكثير من الحيل المنحطة وكثير من الأساليب الملتوية للحصول على فرصة عمل.. وأمثالها لديهن دوما طريقة ما.. وفي الحقيقة لو أن الشركة الموقرة قد استعانت بـ«عربجي» من الشارع لكان أفضل من الأخت رجاء.. فكثير منا يعرف جيدا لماذا وكيف جاءت.. فالأطفال المتشردون في شوارع الأقصر يتحدثون الإنجليزية أفضل منها.. والعربجية أيضا.. الذين لا ينالون قدرا وفيرا من الاحترام، سواء أكان ذلك لشخصهم أم حتى لطبيعة عملهم، ونظرا لسوء أخلاقيات وتصرفات الكثير منهم.. (وإن كان لكل إنسان علينا حق الاحترام لإنسانيته).. هؤلاء العربجية يتحدث أقل واحد فيهم ست أو سبع لغات.

وبينما كنت مستغرقا في أفكاري غارقا في بحر من العرق استنفد أغلب مخزوني من المياه والأملاح، ولم يكن هناك من منقذ إلا زجاجة من المياه الباردة يحملها رجل طاعن السن.. حفر الجبل بدروبه وممراته انعكاسا له فوق صفحة وجهه الأسمر، ويحمل زجاجات المياه الباردة في جردل من الصفيح الصدئ ويغطيها بقطع من الثلج المجروش.. وعلى الرغم من أن المنظر في الأيام العادية لم يكن مشجعا بالمرة فإن حرارة الشمس وشدة العطش جعلتا من الرجل منقذا.. ومن تلك الزجاجات الصغيرة التي يحملها وكأنها كل الحياة.. فلم يكن مهمًّا عندها من أين

جاء الرجل، ولا كيف تسلل إلى داخل وادي الملوك.. نعم لم يكن هناك ما يهم أكثر من زجاجة ماء.. نعم لم يكن هناك شيء مهم غير أن نحصل على قطرة ماء حتي لو حصلنا عليها بأضعاف ثمنها، وحتى لو غضضنا النظر عن مبادئنا تلك التي طالما كنا نتفاخر بها، وحتى لو تجاهلنا، وعن عمد، أو حتى عن حرج، الإجابة عن سؤال مهم نعرف جيدا إجابته وإن لم نسأله.. هو: كيف دخل هذا الرجل إلى الوادي؟

نعم.. نعرف الإجابة حتى إن كنا نتظاهر بأننا لا نعرف أو حتى لو كنا نتظاهر بعدم الاهتمام.. فالكل يرى بأم عينه الحقيقة المخجلة.. وكيف يقتسم بعض رجال الشرطة من الفاسدين ما يكسبه الباعة المتطفلون في وادي الملوك من رزق.. على الرغم من أن هذه العناصر الفاسدة من الشرطة هم المنوط بهم حراسة الوادي وزائريه من هجمات باعة الكتب السياحية والصور التذكارية والتماثيل الصغيرة والقلائد والأساور وما شابه ذلك.. وعلى الرغم من أن هذا هو الدور الأول المنوط بها.. بل ربما هو الدور الأهم الذي عليها القيام به.. ألا وهو حماية السياح والزوار من تطفل بعض الباعة وبلطجة البعض الآخر منهم.. فإنهم يسهمون بالجزء الأكبر والنصيب الأعظم من هذه البلطجة، وسواء كانت هذه المساهمة تتم بشكل مباشر أو حتى بشكل غير مباشر.. فـ«سكة أبو زيد كلها مسالك»،

كما يقولون.. وسكة الفساد كلها أيضا مسالك ومهالك.. وإن كان في نهايتها للبعض غنائم وأسلاب، لكنها غنائم باطلة بلا شك وأسلاب حرام بلا ريب.. وإن كان فسادهم كالسوس ينخر في جسد البلد.. واقتصاد البلد.. وسمعة البلد.. لكن كيف بأمثالهم أن يهتموا وقد أعطاهم رئيسهم ورئيسنا العذر، كل العذر، في السرقة.. وكل العذر في الفساد (غلابة.. هيعملوا إيه؟)؟ ألم يكن هذا رده؟ عندما سُئل سيادته عن فساد عناصر الشرطة.. لكن «إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص».. وسواء كانت هذه القسمة الفاسدة تتم بين البعض الفاسد والبعض المفسد.. وسواء كانت تتم كما يقولون أولا بأول بأن يضع رجل الشرطة الفاسد البائع الفريسة نصب عينيه وبعد إتمام البيعة يأخذ نصيبه وكفى الله المؤمنين شر القتال.. وإما أن تكون القسمة آجلا بعد انتهاء اليوم وإغلاق المكان حيث يجمعون الباعة ويقتسمون معهم ما تحصلوا عليه، أو بنظام الدفع المقدم، وهو ما يفضله أغلب الباعة ويطلقون عليه اسم ضريبة المبيعات، وسواء كانت هذه الضريبة الباطلة مفروضة على البضاعة التي بيعت أو حتى تلك التي لم تُبَع.. فضريبة المبيعات هذه ما هي إلا اسم مهذب لفعل غير مهذب وبديل للمسمى الحقيقي للإتاوة.. تلك المفروضة قهرا وقسرا وفي الوقت نفسه هي اسم يحفظ للباعة كرامتهم

ولرجال الشرطة هيبتهم.. وعموما فعلى البائع أن يختار أي الطرق في التعامل يفضّل؛ لأنه سيدفع في كل الأحوال.. فإن رفض البائع تلك القسمة المفروضة قهرا على بضاعته.. فما علي الشرطي ساعتها إلا أن يسوقه أمامه إلى حضرة الضابط الهمام الذي قلما يتحرك من على كرسيه ليرى حقيقة ما يحدث.. هذا إن كان يريد حقا أن يرى.. وسواء كان سيادته يعرف ويسكت أو حتى لا يعرف شيئا.. ففي الحالتين سواء.. سوف يقوم حضرة الضابط الهمام بتحرير محضر لهذا البائع المتمرد بناء على كلام الشرطي الذي اصطحبه، وفي هذه الحالة فما على البائع إلا أن يقرر مصيره بنفسه.. لأنه إذا ما قرر في لحظة طيش أن يفتح فمه ويفشي السر.. الذي ليس بسر.. فسيحرم من دخول وادي الملوك مرة أخرى.. وسيصاب كذلك بلعنة الشرطة التي لا راد لقضائها إلا بقضاء الله.. وإن سكت فعليه أيضا أن يدفع ثمن هذا السكوت بدفع الرشوة وقبول القسمة الباطلة وتقديم فروض الطاعة المجحفة.. وإلا فالمحضر لن يؤجل والعقاب لن يتأخر.. وعلى الرغم من كل ما كنا نعرفه عنهم.. ويعرفون أننا نعرفه عنهم.. فلم يكن هذا ليمنعهم من بعض الأفلام الهندية والمسلسلات الهزلية بمطاردة الباعة الجائلين فوق التلال وقمم الجبال على الرغم من أنهم يعرفونهم جميعا.. يعرفون أسماءهم جميعا.. ويعرفون ألقابهم..

ويعرفون أماكن إقامتهم أيضا ويستطيعون أن يمنعوهم لو أرادوا.. ولكنهم لا يريدون.

لكن بعد هذا اليوم العصيب فمن الجيد أنهم قد تركوهم.. فعلى الأقل سوف أجد لنفسي شربة ماء.. وفي سبيل قطرة ماء باردة وفي لحظة من لحظات الضعف الإنساني تظاهرت بأني لا أرى ما يحدث في وادي الملوك من تجاوزات.

لكن في منتصف النهار تقريبا عندما كدنا نحترق وكأننا قد دخلنا الجحيم الذي كثيرا ما سمعنا به كعقاب لكل من يعصى النصائح والأوامر ولا يلزم داره مثلنا في يوم مثل هذا.. في يوم حارق من أيام هذا الصيف المولع حتى إن عم شاكر - عسكري الحراسة الواقف تحت تلك المظلة الأسمنتية في ساعة الظهيرة.. تلك المظلة الفقيرة التي فقدت قدرتها على توفير أي ظلال - لقد وقف عم شاكر يدعو الله بأن يبعث لنا ولو بـ«اتنين كيلو» هواء.. وعلى الرغم مما في دعوته من فكاهة سوداء.. فدعوته هذه تذكرني برجل يقف في وسط اللهب يدعو بقطرتين من الماء.. حتى في الدعاء يخشى الرجل أن يكون طموحا.. فهل تعوَّد القناعة حتى تحولت إلى هذا الحد من الخنوع والخضوع؟ إنه لا يطلب من سيادة المأمور مثلا أن يرحمه أثناء الخدمة ويوفر له مكانا به ظل أكبر ولا يطلب حتى من

سيادته مروحة أو حتى مكيف هواء كالذي فوق رءوس من هم أعلى منه درجة وأقل منه سنا.. نعم، من الواضح أن هذا الرجل لا يدرك أنه هنا لا يطلب من لواء شرطة ولا حتى من مأمور.. إنه يطلب من الله عز وجل.. وعليه أن يعلم جيدا أن الله وحده القادر على كل شيء.. فبدلا من «اتنين كيلو» هواء لا أعرف على أي حال كيف سيتعاطاهما الرجل، لماذا لا يطلب هبوب الرياح الموسمية مثلا، أو حتى هطول الأمطار الرعدية، أو نزول الثلوج القطبية؟ لكن الرجل قد فقد القدرة تماما على التخلص من قناعته القهرية تلك التي اكتسبها مرغما في الحياة بعد أن حرم حقوقه الإنسانية والآدمية منذ زمن بعيد.

شيء يشعرك بأن تلك الحرارة ربما كانت إنذارا من السماء، وعلى الجميع أن يفيق.. لكن حتى هذا الأمل الذي ظل يراودني في العودة سريعا إلى البيت قد تبدد عندما قرر مَن معي إكمال الرحلة وزيارة معبد الملكة حتشبسوت، بل وزيارة كل ما هو موجود في برنامج الرحلة وكأنهم ليسوا من البشر.. فتمالكت نفسي عندما سمعت بالخبر قبل أن أسقط من الإعياء مغشيا عليَّ.. حتى وإن كنت قد حكيت لهم من قبل ذلك ما قد يحتاجون إلى سماعه من قصص وحكايات ثم تركت لهم أمر الصعود لرؤية معبد الدير البحري والمقاصير العلوية أو البقاء لتناول الماء المثلج أو أي مشروب

آخر بارد في الكافتيريا.. لكنهم قرروا جميعا الصعود إلى الطوابق العليا من المعبد مستخدمين السلالم والأحدور، فكدت أموت غيظا من هؤلاء الذين لا يتعبون، لكني تركت غيظي ينصهر مع سخونة الشمس التي لا تهدأ ولا يوجد حتى ولو بادرة واحدة تدل على حسن نيتها بأنها سوف تفعل.. فرميت بنفسي على أقرب مقعد خالٍ وجدته في طريقي وفي متناولي بعد أن مسحت بعيني المكان أكثر من مرة بحثا عن مكان خالٍ.. فالكافتيريا ممتلئة عن آخرها بالهاربين أمثالي من شدة الحر ونيران الشمس التي لا تعرف عدوا من صديق.. وحتى هذا المكان الذي عثرت عليه لم يكن خاليا بالفعل، لكني لاحظت صاحبه يلملم حاجياته فوقفت إلى جانبه متسمرا حتى رحل الرجل عنه وجلست أنا في مكانه بسرعة وكأني أصبحت فجأة طفلا صغيرا ومن حولي تعزف موسيقى الكراسي، لكن بعد لحظات قليلة من جلوسي مرت وكأنها ساعات التقطت فيها أنفاسي جاءني أحدهم بكوب من العصير البارد وزجاجة من المياه شبه المجمدة بناء على طلبي لتطفئ نيران الظمأ التي تشتعل في جوفي كالحريق.. وبعد أن التقطت أنفاسي تبادلت إيماءات وإشارات سريعة مع بعض الزملاء والزميلات، وكذلك مع بعض العاملين في المكان، فجميعهم من نفس قريتي، وحتى إن لم يكن بين هؤلاء العاملين أبناء عمومة فهم

على الأقل إما معارف وإما جيران.. لكن على الرغم من أن معاملتهم كانت جيدة مع الجميع فإن هذا لم يكن ليمنعهم أبدا من الحفاوة بي أكثر قليلا من الآخرين، فنحن في بلد لا مانع لديه من وجود المحسوبية والواسطة في أي مكان حتى ولو كان هذا المكان مجرد كافتيريا حق الخدمة مكفول فيها للجميع.. وإن كنت وللمرة الثانية وفي يوم واحد أخالف إيماني بمبدأ المساواة بين خلق الله، ربما لأنني كنت على يقين شبه كامل لا يشوبه إلا قليل من الأمل بأنني لو لم أكن أرتدي تنورة قصيرة ولو لم أكن أرتدي بنطالا ضيقا ولو لم تكن صفاتي تنتهي بتاء مربوطة ما كنت حظيت أبدا بزجاجة الماء.. لذا وللمرة الثانية وفي يوم واحد لا مانع لديَّ من القبول بفساد الذمم.. ولم تمضِ أكثر من بضع دقائق كنت قد فردت خلالها ساقي المجهدة تحت الترابيزة التي أجلس عليها لتستريح من الجمرات الساخنة التي كنت أسير عليها منذ قليل.. وقد فردت أمامي رواية لخيري شلبي، ذلك العبقري الذي إكتشفت مدى روعته وبراعته ومدى تفرده منذ زمن ليس بالطويل ومنذ وقعت في أسره أصبحت أحمله معي أينما ذهبت.. فهو الغائب بذاته الحاضر بأفكاره وفي كتبه التي أحملها معي في كل مكان كتب عنه هذا العبقري والمتجسد بشخوصه وأبطاله في رواياته وقصصه التي أقرؤها بشغف وباستمرار وأستمتع بها وأعيش فيها

وفي لهفة حقيقية لتصيد أخطاء لا يقع الرجل أبدا فيها.. أعيش حكاياته التي لا تنتهي وأعجب من الرجل العبقري الذي لا يعرفه الكثير من أصدقائي عشاق قراءة القصص والروايات (وأكثرهم طبعا من المدعين) فكلما وجد أي منهم رواية له معي سألني في غير قليل من الهزر:

- أتقرأ لكاتب جديد؟

- أبدا.. هذه رواية للأستاذ خيري شلبي، وهو كاتب كبير ومعروف.

- وعنده كام سنة؟

(وكأن شهرة الكاتب وعبقريته تقاسان هذه الأيام بعمره وبالسنين التي عاشها والأعوام التي قضاها في دنيانا)..

- عموما الرجل فوق الستين إذا ما كان هذا سيشفع له.

وغالبا ما يغالب محدثي عندما أخبره بسن الرجل شهقة عجب لا حدود لها تجتاح كيانه ويكاد لا يصدقني، فكيف لا يعرفه وهو فوق الستين؟ فأضطر لتعريفه بأقصر الطرق لتعريف المصريين بكاتب أو روائي حتى إن كان كاتبا وروائيا كبيرا مثل خيري شلبي.

- عارف مسلسل الوتد؟

وغالبا ما يتوه محدثي في زحمة المسلسلات وأسمائها، خاصة أن المسلسل قد عُرض لأول مرة منذ سنوات طويلة أنتج بعدها التليفزيون المصري وشركات الإنتاج في العالم العربي آلاف الأفلام والمسلسلات، لكني كنت على ثقة بأن محدثي لن يضيع مني تماما؛ لأني ما كنت لأسمح له بذلك؛ لذا كنت أعاجله قبل أن يتوه أو يضيع:

- طب عارف مسلسل فاطمة تعلبة؟

- كان بطولة هدى سلطان؟

- طبعا عارفه.. وهي دي فيها كلام؟

- أهو المسلسل ده من تأليف خيري شلبي.

بل الأغرب من كل هؤلاء المدعين أن أقرب صديقاتي من أيام الجامعة وأيام الشقاوة التي لن تتكرر.. ويا رب مراتي ما تقرا كلامي.. وبعيدا عن تطفل زوجتي حتى على مخزون ذكرياتي فهذه الصديقة كانت الأقرب والأفضل بل والأجمل منذ أيام الجامعة، وكانت أيضا إحدى قريبات خيري شلبي، ومع هذا لم تذكره أمامي ولا حتى لمرة واحدة فقط طوال سنوات الدراسة التي امتدت لأربع سنوات كاملة، على الرغم من علمها بمدى ولعي وهيامي بقراءة القصص والروايات، وعلى الرغم من

أنها في كل مناسبة مواتية كانت تحدثنا عن قريبها المخرج الكبير فإذا كان حقا هو أحد أقاربها فكيف لم تذكر يوما ابن عمه الروائي الكبير الذي أهدى إليه روايته «نسف الأدمغة»؟ وهي بالمناسبة واحدة من أمتع رواياته؛ حيث كتب في أولى صفحاتها إهداء قال فيه: إلى ابن عمي حقيقة لا مجازا.. لك الله يا شيخ المبدعين.

ولم يقطع حبل أفكاري ولم يأخذني من ذكرياتي إلا «هانيا»، تلك السيدة التي تزن من أمثالي اثنين، أو ربما إن أردنا العدل «اثنين تحت ومن فوقهم اثنين».. لقد كانت «هانيا» تعاني أمراضا كثيرة لا أعرف منها غير سمنتها الواضحة للعيان التي تجعلها بطيئة الحركة بشكل ملحوظ على غير إرادة منها وعلى غير رغبة حقة.. لقد جلست «هانيا» إلى جواري على نفس الطاولة التي كنت أجلس عليها ومددت ساقيها المتعبتين طلبا لبعض الراحة ورأيت ما تعانيه من ألم بادٍ على قسمات وجهها، فحاولت أن أخفف عنها وألصق تهمة إعيائها بالحرارة المرتفعة والشمس الحارقة والأرض الملتهبة.. إلا أنها قالت بحماس ناقضَ كل مظاهر التعب والإعياء التي تعتريها:

- لو كان هذا المعبد مبنيا فوق فوهة بركان ثائر ما كان ليمنعني هذا من زيارته، لكنه المرض اللعين الذي أقعدني عن تحقيق حلم طالما

تمنيت تحقيقه حتى إذا ما أصبح بيني وبين تحقيق الحلم خطوة منعني المرض من أن أخطوها.

- من أي مرض تشتكين؟

- بل قُل: من أي مرض لا تشتكين؟ ليته كان مرضا واحدا.. فناهيك عن الضغط والقولون والنقرس وتصلب الشرايين.. لأن كل هذه الأمراض اعتدتُ عليها واعتادت هي أيضا عليَّ وعلى كبار السن من أمثالي، وإذا ما تجاهلنا عملية تغيير الركبة فهناك تلك العملية التي أجريتها مؤخرا، المعروفة طبيا بعملية القلب المفتوح.. وحمدا لله أنني لا أعاني داء السكري وإلا لما استطاعت جروحي أن تلتئم ولو بعد عدة أعوام.

وبالطبع لم أستطع أن أقول لها شيئا ولا حتى «ربنا يشفيكِ».. أو حتى «ألف لا بأس عليكِ».. لكني أخذت أبحلق فيها كالمعتوه فاتحا فمي على مصراعيه وأنا لا أصدق مدى شجاعتها في التعايش مع المرض والقبول به والرضا في كل الأحوال.. فلو أصابني نصف ما أصابها أو حتى ربعه أو ثمنه لما كففت عن الشكوى والولولة والبكاء والنواح.. بل إنني أعرف كثيرا من الناس لا يعانون أي علة أو مرض، لكنهم لا يعرفون كيف الرضا ولا شكر المولى على الصحة التي يتمتعون بها وحرم منها الكثيرين، فإن لم يجدوا ما يشكون منه تشاكوا وتمارضوا..

ونظرت للمرأة مرة ثانية وكأنني لم أعد أراها من البشر وكأنني أصبحت أنظر إلى رمز حي للصبر أو تمثال بشري من لحم ودم يجسد القدرة على تحمل المرض والألم.. وأخذت أتفحصها من جديد وكأنني أراها في كل لحظة معنى جديدا ورمزا جميلا.. كانت «هانيا» امرأة بيضاء اللون قد تجاوزت الخمسين من عمرها، ملامحها لا تزال جميلة، فلها أنف صغير ومميز وفم مرسوم بعناية في وسط وجه أنثوي مستدير، وعينان فاتحتا اللون وجذابتان، وإن كان يعلوهما جفنان منتفخان لحدٍ ما وشعر فقد صبغته الطبيعية فصبغته بلون داكن وإن لم يخفِ الكثير وقد قصته وقصرته أيضا إلى ما فوق الكتفين بقليل.. بطنها كبير جدا وساقاها متورمتان، وفي أعلى كاحلها لمحت أثرا لجرح غائر ربما كان أثرا لعملية جراحية، أما أنفاسها فكانت تخرج بالكاد، وكذلك صوتها كان مختنقا لحد بعيد، لكن على الرغم من كل ما كان في جسدها من تضخمات وترهلات فإن ذلك لم يمنعني من أن أرى قلبها الكبير.. كما لم يمنعني أيضا من أن أرى ما فيه من طيبة ورقة وحنان.. ولم يمنعني شيء كذلك من رؤية روعة قلبها الذي كان يزداد حجما واتساعا كلما تكلمت فانسابت طيبتها مثل مياه النيل عندما كان يفيض وتغطي مياهه كل أرض مصر وتغمرها بالخير الوفير، كان ذلك قبل بناء السد العالي، كان ذلك

منذ زمن ليس ببعيد.

لقد كان في المجموعة فتاة شديدة السواد وكأن على وجهها طلاء لامعا وبراقا.. لا يمكن أن تخطئها أبدا عين إنسان مبصر، خاصة أنها كانت في وسط مجموعة كبيرة من السياح الهولنديين بيض الوجوه.. عمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على أقصى تقدير.. ترتدي تنورة من الحرير الأبيض الناصع وعليها قميص حريري فاتح اللون لحد بعيد، ولكن على الرغم من بساطة ما كانت ترتديه الفتاة فقد كان واضحا وجليا أنه لم يكن أبدا من النوع الرخيص.. لكن الشيء اللافت أنك لا يمكن أن ترى تلك الفتاة إلا وهي ملتصقة إما بامرأة بدينة ومتعبة وإما بهذا الرجل المسن وإما بتلك الفتاة الشابة رائعة الجمال.. وقد كانوا جميعهم من البيض، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يدعون أن الفتاة هي ابنة لهم وأنهم هم عائلتها بلا شك، وكن لا أحد يستطيع أن يصدقهم.. كما لا يستطيع أحد أن يصدق روايتهم؛ فمنظرها بينهم كان غريبا ولافتا للنظر، فأينما ذهبت الفتاة تجمع الناس من حولها وكأنه لا يوجد في المجموعة أحد غيرها.. يقفون.. وينظرون.. ويتهامسون.. ويتساءلون عن الفتاة ومن تكون، ومن أين جاءت، وما علاقتها بتلك العائلة.. أو بمعنى آخر ما علاقة تلك العائلة بها، وأنا أيضا أصبحت مثلهم أريد أن أعرف

من تكون، وما قصتها، وما حكايتها.. من الواضح أن عدوَى الفضول لديهم قد انتقلت لي.. ولذا أخذت أسأل وأستفسر وأستجوب أفراد العائلة واحدا بعد الآخر لعل وعسى.. سألت الأم فقالت في حنان صادق:

- تقصد سليشيا؟ إنها ابنة قلبي.

وسألت الأب فقال في ود:

- أتقصد عزيزتي سليشيا؟ إنها طفلتنا الوديعة والمحبوبة.

وسألت الفتاة الجميلة فقالت في إخلاص:

- سليشيا.. هي أختي الوحيدة.

وسألت سليشيا عنهم جميعا فقالت:

- هؤلاء هم أهلي: أمي.. وأبي.. وأختي الوحيدة.

(الله يرحمك يا رأفت الهجان).

لقد سألت كل فرد منهم منفردا.. لعل واحدا منهم يخطئ ويقر بالحقيقة، لكن بلا جدوى.. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من المحاولة مرة أخرى، فقد ظل السؤال يتردد كثيرا في ذهني وإن كانت الإجابة تتغير كلما ألح السؤال على رأسي.. ففي إحدى هذه المرات فكرت في أن الفتاة كانت نتيجة غلطة أو ربما لم تكن غلطة بالمعنى الحرفي للكلمة؛

فربما تزوجت تلك المرأة البدينة التي لم أكن أعرف اسمها حتى جلست إلى جواري وأفرغت ما في جعبتها من حكايات وأسرار رجلا من الزنوج وأنجبت منه تلك الفتاة السوداء.. لكن هذا السيناريو لم يكن محبوكا وبه كثير من الثغرات أيضا، فالرجل المسن هو زوجها الوحيد ومنذ زمن بعيد وهو والد ابنتها الكبرى أيضا، ومن الواضح أن ما بينهما ما هو إلا حب كبير.. إذًا فالقصة هكذا ينقصها الكثير، فهل تكون تلك المرأة قد أخطأت وهي على ذمته ثم عادت إليه وأقرت بذنبها فما كان من الرجل الطيب إلا أن يسامحها برحابة صدر وما كان منه إلا أن يغفر لها خطيئتها؟ لكن الرجل كان يقول بكل فرح وصدق كلما سأله أحد عن الفتاة: «هذه سليشيا ابنتي وحبيبة قلبي»، فهل وصل الرجل إلى هذه الدرجة من الصدق في التسامح، أم أن تلك النظرية ليست صحيحة بالمرة وخيالي قد شطح كثيرا كما في الأفلام بل وربما فاقها خيالا؟ لكن لماذا المرأة هي دائما الخائنة، أم أنني أفترض هذا فقط لكوني رجلا؟ فربما كان هو المخطئ، ألا يجوز؟ وإن كنت لا أظن ذلك.. كما أنني لا أحبذه أيضا.. ربما لأنه رجل وأنا أيضا رجل.. أو ربما لأنني لم أرَ حتى الآن امرأة تستطيع أن تسامح زوجها على الخيانة بل وتتقبل نتيجة هذه الخيانة بنفس راضية حتى ولو كانت ملاكا وحتى ولو كانت امرأة مثل «هانيا».. أو ربما لأنني لا أستطيع أن أتخيل رجلا كهذا الرجل محبا لزوجته ومخلصا لأسرته بهذا القدر

الكبير الذي كان واضحا وجليا ويفيض منه في كل كلمة ينطق بها وفي كل همسة وفي كل لفتة.. فهل في مقدرة رجل مثله أن يخون؟ ومرة أخرى أفشل في كل مرة أضع فيها تصورا يجعل من تلك الفتاة ابنة لهذه العائلة، وينتهي تصوري بالفشل الذريع حتى أرهقني التفكير الكثير، فلماذا لا أريح نفسي ولو قليلا؟ فهذه القصة ليست من شأني.. لقد حاولت حقا أن أفعل.. لكني لم أستطع أن أمتنع عن التفكير في تلك العلاقة التي تجمع بين الفتاة السوداء والعائلة البيضاء فقررت أن أراقبهم لعل وعسى.. وقد كانت المرأة البدينة التي لم أكن أعرف اسمها تأخذ الفتاة في حضنها بين الفينة والأخرى وتقبلها في حنان والرجل المسن ينظر إليها في ود خالص وإشفاق، بينما تمسك الفتاة بيده وكأنها تخشى علي نفسها في البعد عنه من الضياع.. حتى تلك الفتاة الجميلة التي لم يكن جمالها بالشيء الذي يذكر بجانب السحر الذي تتمتع به سليشيا.. فعلى الرغم من جمالها المبهر والجذاب فإن الفتاة السمراء كانت لديها جاذبية غريبة تشغل الناس بها جميعا.. تشغل عيونهم.. وتشغل قلوبهم عمَّن سواها من الفتيات الرائعات مهما كان لديهن من جمال؛ فجاذبيتها تتحدى الجمال وتخطف كل الأنظار.. وعندما جلست «هانيا» إلى جواري ومدت ساقيها لم أجد بدا من سؤالها.. ولذا اخترت أقصر الطرق وسألتها عن بعض ما يدور بخلدي وعن بعض ما تخيلت وبعض ما اعتقدت.

– اعذريني سيدتي.. لكن هل سليشيا ابنتك فعلا، أم أنها ابنة لك بالتبني؟

وعلى الرغم من أن فكرة التبني هذه لم تخطر لي على بال من قبل ولم تكن أبدا أحد كل تلك السيناريوهات الكثيرة التي فكرت فيها.. فإنها فجأة قفزت إلى لساني.. فغالبا ما تكون الحقيقة أمام أعيننا مباشرة ولكن لسبب ما ولحكمة ما لا نستطيع أن نراها بسهولة.. ولم تغضب «هانيا» لتطفلي بل ضحكت بصفاء ثم قالت:

– ليس تماما.. فسليشيا ابنتي ولكنها ليست ابنتي بالدم وليست ابنتي بالتبني، لكنها ابنتي بالكفالة.. وإن كانت كفالة أقرب للتبني.. كفالة منحتني ابنة مثل الملاك.

لم أفهم ما وراء كلامها جيدا.. وإن كان هذا الكلام ولد بداخلي قدرا أكبر من الفضول لأعرف المزيد.. ولم أكن بحاجة لأسال عن أي شيء، فقد استرسلت «هانيا» في حديثها وأخذت تحكي وتحكي بلا توقف، وأنا في حالة من الذهول لأنها قد أجابت عن كل تلك الأسئلة التي دارت بخلدي.. وحتى كل تلك الأسئلة التي لم تخطر لي على بال.. وباحت لي بكل هذه الأسرار.. فسليشيا ليست ابنتها بالتبني؛ لأن التبني له قواعد صارمة في بلدها تدفع البعض ممن يرغبون في تبني طفل

أو حتى أكثر إلى السفر أو حتى الهجرة مؤقتا إلى خارج الديار، وسواء هاجروا إلى أحد البلاد الأفريقية أو إلى واحدة من تلك البلدان الآسيوية التي يكثر فيها الفقر والتخلف كنتيجة للمجاعات أو الصراعات القبلية أو حتى كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة للحروب الأهلية، فيزيد فيها عدد الأطفال الضائعين الذين لا يجدون عائلا لهم ولا عائلة.. فيذهب من يريد طفلا ليتبناه إلى هناك ويختار لنفسه واحدا من هؤلاء الأطفال ويرجع قافلا به إلى بلده ذلك الذي لا تهتم فيه الحكومات المنتخبة إلا بهؤلاء الذين ولدوا على أرض الوطن، هذا إن اهتموا..

أما إذا ما جلبوا الأطفال إليها من خارجها فليس لهؤلاء الأطفال أي حقوق ملزمة وواجبة على الدولة؛ ولذا فالكثير من عمليات التبني تلك يشوبها الكثير من الشبهات وغير القليل من الفساد الأخلاقي والحكومي حتى تحول الموضوع إلى تجارة لا أخلاقية تعتمد أحيانا على خطف الصغار من أحضان آبائهم وأمهاتهم، ولا عزاء للأخلاقيات..

ولن تتخيل أبدا مدى المأساة ولا مدى الحزن ولا الألم الذي يشعر به هؤلاء الآباء الذين بحثوا عن أبنائهم يوما فلم يجدوهم؛ لأن يدا آثمة وقلوبا صدئة قد سرقتهم وباعتهم لتعود تجارة الرقيق مرة أخرى، ولكن في القرن الحادي والعشرين، أي بعد أكثر من قرن كامل من إلغاء العبودية

والرق، وتحولت القضية الإنسانية إلى قضية لا إنسانية..

لكن قصة سليشيا قد تختلف وقد تتفق مع غيرها كذلك.. فهي وإن كانت تختلف في التفاصيل لكنها تتفق مع غيرها بلا شك في مدى ما بها من قسوة.. فالفتاة ولدت بعد تسعة أشهر من لقاء أمها ألمانية الأصل – التي كانت تعاني إعاقة ذهنية واضحة – وشاب أسمر من سورينام لم تمنعه إعاقة هيلجا الألمانية من تحقيق رغبته الأنانية ولا حاجته الآنية فكانت الفتاة هي الضحية الحقيقية، ولأنه وكما اتضح فيما بعد أن هذا الأمر كان يتكرر كثيرا مع السيدة هيلجا التي لم تكن تقدر حقا نتيجة ما يحدث لها ولا مدى الضرر والدمار الذي قد تتسبب فيه لآخرين لا ذنب لهم في هذه الحياة، غير أنها قد أنجبتهم، لكنها – للأسف – لا تدرك ولن تدرك أبدا مدى الألم ولا مدى الحسرة التي ستورثها لمن لا ذنب لهم؛ نظرا لحالتها الصحية وقدراتها العقلية.

وإن كان الشيء الوحيد الصحيح الذي استطاعت القيام به لاحقا هو التعرف على والد سليشيا الحقيقي ولكن بعد عشر سنوات كاملة من ولادة الصغيرة التعيسة، ولم ينكر الأب المستهتر ما حدث.. كما لم يعاقبه أحد على ما حدث.. فما دام ما حدث قد حدث بالتراضي بينهما فحدِّث ولا حرج.. ولكن في هذه القصة المشكلة مزدوجة؛ فالأم معاقة والأب من سورينام.

ولسورينام قصة طويلة مع هولندا لم تبدأ بسليشيا ولن تنتهي أيضا بها.. ففي بداية القرن السابع عشر الميلادي وعندما كان السكر سلعة استراتيجية في المقام الأول وكانت صناعته هي الأهم حينئذ، فقد قامت بريطانيا باحتكار هذه الصناعة، وساعدها في ذلك مزارعها الشاسعة والممتدة في كل من الهند والبحر الكاريبي، بينما كانت هولندا محبطة في الوقت ذاته من عزوف الكثير من الهولنديين، وكذلك عزوف الكثير من الأوروبيين عن الانتقال للعمل والحياة في مستعمرة هولندا الجديدة التي كانت تقع في الساحل الشمالي الشرقي لأمريكا الشمالية.. نظرا لما كان يعانيه المزارعون الأوروبيون من هجمات متكررة للحصول على النساء والأسلحة والطعام والمؤن.. وهذه الهجمات المتتالية كانت قاسية ومميتة إلى حد بعيد.. ولتعويض هذا النقص في الأيدي العاملة فقد قامت هولندا بجلب العمالة من شبه الجزيرة الهندية.. وكذلك من الهند الشرقية الهولندية (المعروفة حاليا باسم إندونيسيا) كما تم جلب عدد آخر من العمال معظمه من الرجال الأقوياء الأشداء.. وسواء كان هؤلاء الرجال من أفريقيا أو من الصين أو حتى من الشرق الأوسط، فقد كانت هناك الكثير من القصص المؤلمة والحكايات المأسوية الخاصة بهؤلاء العبيد الذين كانوا يعملون في تلك المزارع الشاسعة بنظام السخرة.. وتحت وطأة التعذيب.

وعلى الرغم من أن العبودية قد أُلغيت رسميا في سورينام، وذلك من جانب هولندا في عام 1863، لكن هذا القرار لم يدخل حيز التنفيذ فعليا ولم يتم تحرير جميع العبيد في سورينام إلا في عام 1873، أي بعد عشر سنوات كاملة من هذا القرار، وقد تم اعتبار هذه السنوات العشر فترة انتقالية وإلزامية يتعين على العبيد خلالها العمل في المزارع مقابل بعض الأجر الذي كان ضئيلا بلا شك؛ حيث كانت سورينام تعتمد حتى هذا الوقت وبشكل كبير على العمالة اليدوية؛ حيث إن الزراعة هي حرفة السكان الأولى التي يعمل فيها نحو ربع عدد السكان في سورينام، وإن كانت الزراعة تتركز في المنطقة الساحلية، لكن المحصول الرئيسي فيها لم يعد فقط قصب السكر؛ فهناك محاصيل أخرى مثل الأرز والبن والقطن، لكن أغرب ما في سورينام أهلها.. فعلى الرغم من أن عددهم لا يزال قليلا إلى حد ما فإن التاريخ البشري والإنساني في سورينام هو واحد من أكثر التواريخ تنوعا عرقيا وثقافيا في العالم أجمع.. وفجأة توقفت السيدة «هانيا» عن الكلام قليلا.. ربما لتستريح قليلا.. أو ربما لتلتقط أنفاسها المتعبة من الكلام.. وإن كانت قد سألتني في غير قليل من الهزر:

– هل قمت بزيارة سورينام من قبل؟

– لا سورينام.. ولا حتى خزام.

- ماذا؟

- لا تشغلي بالك.. كل ما أردت قوله هو أنني في الحقيقة لم أسمع بسورينام هذه قبل أن تحدثيني عنها وتخبريني بها.

- عليك أن تزورها إذا ما جاءتك الفرصة؛ فسورينام جزء من جنة عدن؛ لأن فيها جبالا وتلالا وسهولا وأنهارا وطبيعة ساحرة وخلابة وخليطا بشريا وجنسيا وعرقيا قلما تجده في أي مكان آخر.

- إن شاء الله سأفعل..

فأكملت «هانيا» حديثها الشائق عن سورينام وقالت في تعقيب مهم:

- لكن بالمناسبة، فسورينام التي أتحدث عنها لا تقع في الساحل الشمالي لأمريكا الشمالية كما أخبرتك من قبل؛ لأنه ومن أجل عيون قصب السكر فقد قامت هولندا بصفقة مع بريطانيا؛ حيث قامت بريطانيا بمبادلة هولندا في عام **1640** بجزء من مستعمرتها غويانا (أو الأراضي المنخفضة)، تلك المستعمرة الغنية بقصب السكر في أمريكا الجنوبية، في مقابل المستعمرة الهولندية الباردة الجرداء في أمريكا الشمالية التي قام الإنجليز بتغيير اسمها من أمستردام الجديدة إلى يورك الجديدة أو نيويورك، بينما عرف

الجزء الهولندي من غويانا باسم «سورينام».. وسورينام هو اسم مشتق ربما نسبة إلى قبائل سورين التي كانت تسكن تلك المنطقة قبل أن يتم طردهم بعد ذلك من قبل الهنود الأمريكان في القرن السادس عشر، وهم كذلك أول من سكنوا المنطقة قبل وصول الأوروبيين إليها.. لكن على الرغم من أن سورينام هي أصغر دولة في أمريكا الجنوبية من حيث المساحة ومن حيث عدد السكان فإنها البلد الوحيد والدولة الوحيدة في نصف الكرة الغربي من العالم التي تتحدث اللغة الهولندية؛ لذا كانت تعرف باسم «المستعمرة الهولندية فيما وراء البحار»، وعلى الرغم من الفتور في العلاقات بين البلدين فإن اللغة الهولندية ما زال يجري تعليمها حتى اليوم للطلبة في مدارس سورينام؛ لذا فقد أصبح من حق سورينام أن تنضم إلى منظمة الدول الناطقة باللغة الهولندية التي تضم في عضويتها كلا من: هولندا وبلجيكا، لكن الناس في سورينام لا يتحدثون فقط الهولندية بل يتحدثون أيضا نحو إحدى عشرة لغة.. فمثلا هناك اللغة البرتغالية.. التي كانت الأسرع انتشارا بعد اللغة الهولندية، وذلك مع تزايد هجرة البرازيليين إلى سورينام، أما اللغة الإنجليزية فقد دخلت إلى البيوت السورينامية مع التلفاز، أما اللغة السورينامية فهي تلك اللغة التي طورها الأفارقة في سورينام، وهي تلك اللغة التي يسمونها «سرانان»، وقد وضعت هولندا دولة سورينام في ظل الحكم الذاتي المحدود في

عام 1954 مع الاحتفاظ لنفسها طبعا ببعض المزايا مثل السيطرة على الشئون الدفاعية والخارجية، لكن سورينام قد استقلت عن هولندا رسميا عام 1975، لكن قبل أن تحصل سورينام على استقلالها الكامل هاجر ما يقرب من ثلث سكان سورينام إلى هولندا؛ لذا يوجد أكثر من ربع مليون شخص سورينامي أو من أصل سورينامي يعيشون في هولندا اليوم، منهم والد سليشيا نفسه، وكذلك الكثير من أعضاء أندية كرة القدم الوطنية الهولندية.

لقد ولدت سليشيا في أحد المستشفيات العامة، لكن نظرا لحالة الأم غير المسئولة عن أفعالها ولا حتى مسئولة عن نتائج هذه الأفعال، ونظرا لأنها ألمانية الأصل والجنسية وليس لديها من أقارب أو حتى معارف في هولندا غير أم مسنة وليس لديها من القدرة ولا من العمر ما يكفي لرعاية الصغيرة؛ لذا فقد تم إيداع الطفلة الوليدة دارا خاصة لرعاية الأطفال الصغار الذين لديهم مثل هذه الظروف لحين تقدم أحدهم بطلب تبنٍ لهم وقد كانت «هانيا» هي الموظفة المسئولة عن تلك الفتاة الصغيرة منذ ولادتها والمعينة من قِبَل الحكومة لرعاية شئون سليشيا الصغيرة وحتى قيام السيدة «إلين موهن» بتبنيها رسميا، لكن الموضوع لا ينتهي أبدا بهذه الطريقة، وهذه ميزة يحظى بها الصغار في الدول المتحضرة؛ حيث تعين الدولة موظفا لمتابعة شئون الصغير وكل الظروف المحيطة به وطبيعة البيئة من حوله وظروف العائلة الجديدة التي سينتمي إليها الطفل ومدى

ملاءمتها للصغير البائس وكذلك مدى توافقهما معا.. فليس الموضوع مجرد طفل بلا عائل ولا عائلة فلنعطه إذًا لأي عائلة تؤويه وتكفله وترعاه فتنتهي بذلك المشكلة، سواء أحسنت إليه هذه العائلة أو حتى أساءت إليه، فالمهم هو أن الموضوع قد انتهى بالنسبة للسادة المسئولين، لكن هذا لا يحدث أبدا في هولندا، كما لا يحدث أيضا لا في أوروبا ولا في أمريكا؛ فوصاية الدولة مستمرة حتى يبلغ الصغير الحلم.. وقد كانت الأمور تسير مع سليشيا على ما يرام؛ حيث قامت السيدة إلين موهن وزوجها الطيب المحب، وهما مثال نادر على حياة زوجية سعيدة تقوم على الحب والاحترام المتبادل بينهما بتبني الصغيرة التعسة والمنكوبة.. وبعد انتقال سليشيا إلى بيتهما، التي لم يكن عمرها حينئذ قد تجاوز بضعة أشهر وجد الجميع ضالته وسعادته، سواء تلك الصغيرة البريئة التي انتقلت إلى حضن عائلة وجدت عندهم كل العناية والرعاية وكذلك فيضا من الحب والحنان.. سواء من تلك الأم الطيبة والحنون.. التي حرمت سنوات طويلة من نعمة الإنجاب أو حتى من ذلك الأب العطوف الذي كانت سعادة زوجته سببا في سعادته وإسعاده، لكن دوام الحال من المحال كما يقولون.. فبعد ثلاث سنوات من عمر الصغيرة سليشيا قامت الأسرة برحلة ترفيهية مع بعض الأصدقاء، وهذا شيء طبيعي ومعتاد في هولندا، فسواء كانت تلك الرحلات الداخلية القصيرة في عطلة نهاية الأسبوع أو حتى تلك الرحلات الخارجية الطويلة في الإجازات الرسمية والموسمية

فكلاهما جزء من ثقافة الشعوب الأوروبية.. لكن هطول الأمطار بشدة وبغزارة في طريق عودتهم ليلا إلى المنزل أدى إلى انزلاق عجلات السيارة التي كانت تسير بسرعة كبيرة لتصطدم بإحدى هذه الأشجار الضخمة التي كانت قابعة على حافة الطريق ليخلف الحادث المروع وراءه ثلاثة قتلى وزوجة مخلصة مصابة بكدمات وصدمة.. وطفلة منكوبة فقدت عائلتها لثاني مرة.. يا لها من نكسة.. لقد كان الوضع مأسويا، خاصة بعد أن تم إيداع السيدة إلين موهن أحد المستشفيات المتخصصة لعلاجها من آثار الصدمة الشديدة التي تعرضت لها بعد أن فقدت زوجا محبا ومخلصا وحنونا عاشت معه أكثر من نصف عمرها تقريبا، وبعدما ظنت أن الحياة قد ضحكت لها أخيرا عندما منحتها سليشيا.. وهي الشيء الوحيد الذي كانت تعتقد إلين أنه كان ينقصها في هذه الدنيا؛ لذا عندما أصبحت إلين أمًّا لأول مرة شعرت بأن سعادتها قد اكتملت، لكن كان للقدر رأي آخر مخالف؛ حيث عادت سليشيا مرة أخرى إلى هذا المكان الذي يجب ألا ينتمي إليه أي صغير في مثل سنها ولا يحب أي صغير العيش به كذلك.. اللهم إلا إذا كان مُكرهًا.. وعلى الرغم من إنها ليست المرة الأولى لسليشيا في هذا المكان.. فإن هذه المرة سوف تكون يقينا أصعب كثيرا عليها.. ربما لأنها قد صارت أكبر سنا وأكثر استيعابا، كما أنها قد اعتادت حياة الأسرة ودفء العائلة والحب الصادق والحنان الغامر الذي كان بلا حساب.. ولم تتحمل السيدة «هانيا» ما حدث لسليشيا؛ لذا فقد قررت أن

تكفلها في بيتها ولو بشكل مؤقت لحين خروج السيدة إلين موهن من المستشفى.. وإن كانت تعلم جيدا أن هذا قد يستغرق وقتا طويلا، كما أن القوانين لم تكن لتسمح لها بمثل هذا التصرف، إلا أنه دائما ما توجد طريقة ما.. وقد بذلت السيدة «هانيا» كل ما في وسعها لتجد هذه الطريقة، ولكي تحافظ على الصغيرة المنكوبة من التنقل بين أيدي آباء غير أمناء وغير أكْفاء أو حتى غير صالحين أو غير مؤهلين لرعاية العزيزة سليشيا.

وهو ما كان يحدث كثيرا مع أطفال آخرين، فليس كل الآباء والأمهات كهؤلاء كالذين نراهم على شاشة التلفاز أناسا مهندمين ومهذبين، أو كهؤلاء الذين كثيرا ما نراهم أثناء عطلاتهم الموسمية ونزهاتهم وهم يسيرون في طرقات المدينة السياحية وهم ممسكون بأيدي أطفالهم وصغارهم، وفوق وجوههم شبح ابتسامة كبيرة لا تزحزحها شقاوة الأطفال وصيحاتهم ولا حتى طلباتهم التي لا تنتهي أبدا.. فهناك أيضا الكثير من الآباء السيئين الذين يسيئون معاملة أطفالهم ويقومون بإيذائهم بشتى الطرق ولا يقدرون أبدا النعمة التي بين أيديهم؛ لذا فقد وجدت المنظمات التي توفر لهم الحماية من العنف الأسري الذي قد يتعرضون له ومن أجل حمايتهم سنت كذلك القوانين الرادعة والصارمة.. وقد كانت السيدة «هانيا» ترى أن سليشيا قد عانت بالفعل وليس هناك من داعٍ لتعاني أكثر؛ لذا فقد حاولت بكل جهدها أن تنقذها من هذا المصير حتى نجحت أخيرا ووجدت ثغرة في القانون تسمح لها برعاية سليشيا لحين عودة

السيدة إلين إليها.. وقد أقامت سليشيا في منزل السيدة «هانيا» كفرد من العائلة منذ أن كان عمرها ثلاثة أعوام وحتى اليوم، لم تفارق تلك العائلة قط.. وكذلك تلك العائلة لم تفارقها قط.. وخلال هذه السنوات الطويلة حرصت السيدة «هانيا» على أن تقوم سليشيا بزيارة السيدة إلين بانتظام في المستشفى، التي لم تتحسن حالتها كثيرا.. كما رأت كذلك أمها الحقيقية مرتين، المرة الأولى كانت منذ أكثر من عام، لكن سليشيا كانت غاضبة جدا وحانقة جدا؛ لذا لم يستمر هذا اللقاء المؤثر أكثر من خمس دقائق.

أما المرة الثانية فقد كانت منذ ثلاثة أشهر تقريبا، وقد كانت سليشيا في هذه المرة أكثر تقبلا للوضع وأكثر استعدادا له، كما كانت أيضا أكثر إشفاقا على أمها، خاصة بعدما عرفت طبيعة مرضها ولمست بنفسها مدى شقائها، كما عرفت أن لديها إخوة وأخوات جاءت بهم الأم بنفس الطريقة؛ لذا فقد قررت سليشيا أن تذهب للبحث عنهم أينما كانوا، فربما كانوا في حاجة إلى اهتمامها (هذا هو ثمرة ما زرعته تلك السيدة)، لكنها قررت أن تقوم بما ظنت أنه يجب عليها أن تقوم به بعد عودتها من مصر.. فهي الأخت الكبرى لهم جميعا، سواء شاءت ذلك أم أبت.

وقد التقت كذلك الأب البيولوجي الذي كان سببا في وجودها والذي كان متأثرا جدا عندما رآها، ربما لأنها قد ورثت منه لونه الأسمر وشعره

«الأكرت» الداكن، وربما لأنها كذلك قد ورثت عنه الكثير من ملامحه السورينامية الساحرة، أو ربما لأنه لم يتخيل قط أن تكون له ابنة مثل سليشيا في مقتبل العمر جذابة ومهذبة ونالت قدرا جيدا من التعليم والتربية.

فإذا كانت سليشيا قد فقدت أبا وأما، فقد عوض الله عليها وساق إليها بدلا من تلك الوالدة التي فقدتها والدتين أكثر عاطفة وعطفا عليها من بعضهما، وبدلا من الوالد الذي لم يعلم يوما بوجودها والدين أكثر عناية بها وعطفا من هذا الأب الذي فقدته، فما أغلق الله بابا بحكمته إلا وفتح بدلا منه بابين برحمته.. ولكن بقي في ضميري سؤال حائر: إذا كان في قلب هذه السيدة الحنون «هانيا» حب يكفي كل صغار الدنيا فلماذا سليشيا بالذات؟!

فابتسمت صاحبة القلب الطيب وأقوى امرأة عرفتها حتى الآن ثم قالت لي:

«لأنها الملاك الوحيد الذي تستطيع أن ترى جناحيه».

القصة الثالثة

في الطريق إلى أبيدوس

أبيدوس..

كم تمنيت لو كانت هي كلمة السر في قصتي.. تلك المدينة المدفونة تحت رمال من الإهمال.. تلك المدينة البعيدة، لكنها مليئة بالكنوز والخيرات.. التي أغلبها وبكل أسف تحت التراب والركام.. تلك المدينة التي تعاني النسيان والتجاهل والتقصير المتعمد.. على الرغم من كل ما تستحقه من عناية ورعاية واهتمام.. ومهما كان الطريق إليها طويلا وشاقا إلا أنها تستحق الزيارة ولو مرة واحدة على الأقل في حياتك الدنيا.. ولن أقول لك ومرة أخرى في حياتك الأخرى.. أو بالأحرى بعد مماتك تماما كما كان يفعل أجدادك.. لكن ما أعرفه جيدا أنها فعلا تستحق منك أكثر من زيارة واحدة؛ لأنك عندما تزور أبيدوس للمرة الأولى لا شك أنك تصبح في حالة غير تلك التي تكون عليها عندما تفتح عينيك وفمك وأنفك وأذنيك وقلبك وعقلك وكل جوارحك لكل جديد سوف تراه أو تسمعه أو حتى تحسه أو ربما سوف تشمه في طريقك إلى هناك.. أما في المرة الثانية فإنك ستكون قد اعتدت الطريق بدرجة لا بأس بها.. درجة تخلق بينك وبين الطريق ألفة وسابق معرفة.. لكن في المرة الثالثة صدقني سيحدث التغيير الحقيقي لعلاقتك بهذا الطريق بلا شك؛ حيث تبدأ التفاصيل الكبيرة بالسكن في مكان ما داخل قلبك ووجدانك.. ولكن في المرة الرابعة تبدأ

التفاصيل الصغيرة تأخذ مكانها في ذاكرتك.. أما بعد المرة الرابعة فهناك احتمال كبير أن تكره هذا المشوار الطويل وتكره بشدة السير في هذا الطريق الممل لمن لا يحبه حتى إن ألفته.. لكن هناك أيضا احتمالا آخر وإن كان ضعيفا إلى حد بعيد أن تصبح مثلي عاشقا ومغرما بطريق أبيدوس.. تغلق عينيك في هيام وشوق وأنت تجتر التفاصيل الصغيرة والذكريات بطول الطريق وعرضه.. وعندما تصل إلى نهاية الطريق تفتح عينيك في نشوة وتقول لمن حولك: أخيرا قد وصلنا إلى أبيدوس..

في الحقيقة هناك الكثيرون الذين لا يحبون الذهاب إلى أبيدوس.. ربما لأن الطريق طويل ومرهق، ويجده آخرون مملا وغير مثير، كما أن الذهاب إلى هناك والإياب في اليوم نفسه عمل شاق جدا وبلا عائد مادي مناسب للجهد المبذول فيه من سفر وتعب.. ولكن بالنسبة لي فالأمر مختلف إلى حد بعيد؛ لأنني أصبحت لا أجد متعتي الحقيقية إلا في السفر لأبيدوس.. ولم أعد أشعر أبدا بالملل من طول هذا الطريق الذي أصبحت أحفظ كل ثنية وكل تعريجة فيه، وأكاد أعرف مكان كل بيت وديوان ومدرسة.. وكل زاوية وجامع وكُتاب.. وكل كنيسة ودير.. بل أحيانا إن لم أكن أبالغ أشعر بأنني أعرف مكان كل شجرة ونخلة.. وكل حديقة وتعريشة.. وكل حقل في هذا الطريق.. بل كنت أستطيع أن أغفو

قليلا – وبلا أدنى مبالغة – لأستيقظ بعدها، لكن دون حتى أن أفتح عيني لأحدد اسم المكان الذي أنا فيه.. نعم أكاد أعي كل شيء عندما أسافر إلى أبيدوس.. وكأن حواسي جميعها تعمل بكفاءة عالية.. لكن هذا يحدث فقط عندما كنت أذهب إلى هناك.. فما إن يبدأ محرك السيارة بالدوران وتبدأ عجلات الحافلة بالتحرك مودعة خلفها مدينة الأقصر حتى أودع معها بقايا طريق الكباش، سواء على يمين الطريق أو حتى على اليسار.. ثم ألمح من بعيد أطلال المعبد الكبير.. ملوحا بذراع الرافعة العملاقة التي نصبت هناك منذ سنين ولم تنجز مهمتها حتى الآن.. لسبب لا يعلمه إلا قلة من الأثريين.. لكن الأهم من سر بقاء الرافعة هو الرافعة نفسها التي أصبحت جزءا أصيلا من صورة المعبد والتي لا أستطيع أبدا أن أتخيل المعبد من دونها.. بعدها نعتلي الكوبري المقام فوق خط السكة الحديد.. ثم نهبط الكوبري إلى هذا الطريق المؤدي إلى المطار الذي أصبح محاطا بالزهور من كل الألوان والأشكال..

ومن خلف تلك الزهور الجميلة.. تمتد زراعات القصب على مرمى البصر.. وتظل كذلك حتى نعبر من فوق الترعة ونودع عساكر الكمين.. لنتجه بعدها شمالا حيث الطريق الأسفلتي الطويل الموازي للترعة الكبيرة الممتدة من إسنا وحتى أسيوط، والمعروف بالطريق الزراعي الشرقي؛ حيث

يمتد هذا الطريق بين الترعة الكبيرة على اليسار والمصرف الصغير على اليمين.

بينما تقف تلك المنازل الطينية الصغيرة على كلا الجانبين.. فلا تكاد تعرف إن كانت تقف مودعة للمسافرين أم أنها تقف مرحبة بهؤلاء القادمين.. لكن الغريب في الأمر هو أنني في كل مرة أمر فيها بتلك البيوت لا أشعر إلا بالألفة وشيء من الحنين.. فهي تبدو لي وكأنها أم عطوف.. وهؤلاء الأطفال الصغار يلعبون في حماها ويمرحون ويعبثون.. وأيضا تلك الحظائر وما بها من أغنام وأبقار وماعز وحمير.. وأحيانا في القرب من تلك البيوت نرى بعض من الإوز والبط الذي يسبح في المياه الراكدة سعيدا.. وكأنه يغيظ الفراخ والحمام.. لكن في طريق العودة وفي ساعة العصاري تخرج النساء من خلف الجدران وتراهن فرادى أمام الأبواب التي قلما تراها مغلقة.. أو حتى يجلسن معًا في جماعات.. بينما يتجمع الرجال على تلك المصاطب والدواوين المبنية من الطين.. يتحدث الكبار منهم في أمور تبدو وكأنها تحديدا لمصير الإنسان.. بينما الآخرون من الشباب الأقل سنا والأقل جدا والأكثر عبثا تراهم يلعبون الدومينو والسيجة ويحتسون الشاي.. وإن كانوا في أيام أخرى تراهم يتبادلون الأدوار؛ فترى الكبار يلهون والصغار يتناقشون ويتجادلون..

ولكن لسبب ما تلتصق بعض صور الطريق بحائط ذكرياتي.. بينما تُمحى بعض الصور وكأنها لم تكن أو لم تمر حتى يوما في مرآة خيالي..

فمثلا بينما يحتمي حمار صغير ببقايا حائط مهدم، أرى ربة منزل تحمل ماعونا مملوءا بالعجين.. ويعتلي ابنها ظهر حمار آخر يشرب من إناء فخاري مكسور تحت شجرة صفصاف يقف عليها طائر «أبو منجل».. ومن بعيد يقف غراب فوق غصن أخضر وكأنه يراقب – مثلي – ما يحدث.. كل منهما صورته فوق صفحة المياه وقد ازداد الماء سكونا وهدوءا.. حتى تكاد تشعر أحيانا وكأنه واقف لا يتحرك.. وقد تحول فقط إلى مرآة لتنعكس عليها صور الأشجار والحيوانات.

ولكن ما إن نقترب من أبيدوس حتى تلوح لعيني تلك النخلة من بعيد مقطوعة الرأس.. وأعلاها يكاد يلامس أدناها.. وكأنها منكسرة الخاطر ومكسورة النفس وحزينة إلى حد بعيد.

وبعدها نقترب من المزلقان.. فننتظر قليلاً عبور القطار المتجه من الجنوب إلى الشمال أو حتى من بحري لأقصى الصعيد.. وبعدها يمر القطار مسرعا بعدما تركنا ننتظره لبضع لحظات تجمع فيها أطفال القرية وطاردونا بابتسامات وتساؤلات وبعض الطلبات.. فمنهم من طلب طعاما ومنهم من طلب أموالا ومنهم من طلب مجرد أقلام.. نعبر فوق شريط

السكة الحديد بعدما يمر القطار.. وعندما تبطئ حاملات القصب يتسابق إليها الأطفال الأكبر سنا فيتعلقون بأعواد القصب ويتبارون أيهم يأخذ النصيب الأكبر من الغنيمة.. على الرغم من أن حقول القصب على بعد ذراع واحدة منهم.. لكنها النفس التي لا تشتهي ما لديها.. فيتسابق الصغار في جذب أكبر عدد من الأعواد، حتى إن لم يكونوا في حاجة إليها.. يتسابقون ويجرون خلف العربات لعدة أمتار ثم يتركونها لآخرين ليكملوا ما بدأوه وكأنهم في سباق تتابع لا ينتهي إلا بنهاية موسم الحصاد.

وبعيدا عن سباق الصبية.. فعلى الجانب الأيمن من الطريق.. يجلس القرويون فوق كراسي القهوة الوحيدة بالبلدة.. تلك الكراسي الخشبية المتهالكة التي عفى عليها الزمن.. لكن الكراسي حتى إن لم تكن موجودة فما كان هذا ليشكل فرقا بالنسبة لهم.. فالمهم هو الموقع الحيوي للقهوة.. هذا الموقع الذي يتيح لهم الفرجة على المسافرين من المصريين.. وكذلك من السياح الغربيين أصحاب الشعر الأصفر والأجساد العارية.. ومن الواضح أن مرور السياح من هذا الطريق كل يوم قد أصبح حدثا مهمًا بالنسبة لأهل القرية.. خاصة وقد أصبح هذا الحدث اليومي مثل مشاهدة المسلسلات في التليفزيون.. يحدث كل يوم في نفس الساعة تقريبا.. والفضل

يرجع إلى تعنت الشرطة فيما كانت تسميه نظام السرب؛ حيث يجب على الجميع الانطلاق في اللحظة نفسها والعودة أيضا في اللحظة نفسها.. والسبب المعلن هو حماية السياحة.. والسبب الخفي هو ما كانت تدفعه وزارة السياحة من أموال لوزارة الداخلية.. تحت بند حماية السياحة.. وفي كل مرة كنا نطالب فيها بإبطال هذا النظام الساذج للحماية كانت السياحة – وبقدرة قادر – تتعرض للهجوم: مرة في سيناء.. ومرة في خان الخليلي.. ومرة في السلوم.. ودائما الفاعل مجهول.

وقد كنت من أكثر الناس سخطا على ما يحدث.. أولا: لأنه يسيء إلى مصر ويضر بحركة السياحة فيها ويجعلها تبدو كأنها منطقة ساخنة وغير آمنة وبؤرة دائمة للإرهاب وتصور هؤلاء القرويين الطيبين بأنهم قتلة وخطر على الأمن العام.. على الرغم من أنني في كل مرة أرى فيها هؤلاء الرجال وقد تركوا أعمالهم في الحقول وجلسوا فوق تلك المقاعد المتهالكة يحملقون في السيارات ومن بداخلها.. والنساء يختلسن النظرات من خلف النوافذ والأبواب.. والأطفال يلاحقوننا بل كلل ولا ملل كل يوم.. يتسابقون للحاق بنا.. بينما يصطف آخرون في الطرقات والشوارع وفوق أسطح المنازل.. فقط ليروا الحدث الأهم في صباح كل يوم.. الذي يقضون بقية اليوم يتحدثون عنه وكأنه قد امتد بهم ردحا من الزمن..

على الرغم من أنه لم يزد على بضع لحظات..

إن رؤية السرب قد أصبحت لبعض منهم بمثابة المتعة الوحيدة في كل يوم.. حتى تحولت المتعة إلى عادة.

أما بالنسبة للأبطال المغاوير الذين يقومون بعملية الحراسة التي لولا ستر الله في كل مرة لانتهى الأمر بمذبحة كبرى، خاصة أن أغبى إرهابي كان من الممكن أن يصطادنا كسرب من الحمام الكسيح.. فالسرب إلى أبيدوس يخرج من الأقصر مرة واحدة كل يوم في الساعة نفسها.. كل يوم.. لا يتقدم ثانية واحدة ولا يتأخر.. ففي تمام الثامنة صباحا تصطف كل العربات الراغبة في الخروج من المدينة.. سواء أكانت متجهة شمالا إلى الغردقة أم إلى دندرة أم حتى إلى أبيدوس.. بينما هناك سرب آخر في موعد آخر ثابت ومعلوم ولا يتغير لهؤلاء المسافرين صوب مدن الجنوب.. وإن لم تلحق بهذا السرب أو ذاك فليس لك من مخرج من المدينة قبل موعد السرب اللاحق.. وكأنك في سجن كبير.

وفي العادة تتقدم السرب عربة شرطة واحدة في المقدمة وعربة أخرى في المؤخرة.. مهما كان حجم السرب.. وفي إحدى المرات في ذروة الموسم السياحي كان هناك سرب لم أرَ حقا مثله؛ حيث امتلأت شوارع المدينة الضيقة بالعربات المعبأة بالسياح من كل لون وشكل.. وأصبح من

المستحيل حصر العربات جميعها.. وكانت تلك على ما أعتقد هي المرة الوحيدة التي انطلق فيها السرب قبل موعده المقدس لسنوات متعاقبة بعشر دقائق كاملة.. وكان لي صديق في إحدى العربات التي في المقدمة.. وكثيرا ما كنت أتحدث إلى أصدقائي في الهاتف إذا رأيت أحدهم مسافرا على الطريق نفسه.. وحاولت أن أعرف مكان سيارته فلم أستطع.. فسألته مستفسرا عن مكان سيارته من السرب.. فاعتقد أنني أمازحه لأنه قد وصل إلى المعبد بالفعل.. بينما كنت تقريبا قد قطعت فقط نصف الطريق.. كان أول هذا السرب في دندرة بينما آخره لا يزال في قفط. يومها حمدت الله كثيرا على غباء الإرهاب في مصر.. هذا إن كان هناك حقا من يمكننا أن نسميهم إرهابيين.. فأقل الإرهابيين ذكاءً في العالم كله يستطيع أن يقف على قارعة الطريق في تمام الثامنة صباحا ويطلق من بندقيته بضع طلقات صوب السرب.. أو حتى يمكنه أن يلقي علينا قنبلة يدوية ويلوذ بعدها بالفرار داخل زراعات القصب الكثيفة.. التي تشكل وحدها أكبر فرصة للتغطية على أي هجوم، سواء أكان هجوما للقتل أم حتى فقط لمجرد السلب والنهب.. لكن لأن الله هو الحارس فليس في مصر واحد من هؤلاء الأغبياء (الإرهابيين).

ولكن إحقاقا للحق فقد تعرض السرب للهجوم مرة واحدة فقط على

ما أتذكر.. هجوم من قِبَل مسلحين.. ولن أقول هجوما من قبل إرهابيين؛ لأنهم لم يتمكنوا من الإمساك بهم.. ولم يعرفوا حتى السبب الرئيسي لهذا الهجوم الذي لم يصَب فيه أحد بأذى.. وقد كنت يومها في طريقي إلى أبيدوس.. وفي السرب نفسه الذي تعرض للهجوم، لكن الهجوم لم يكن على سرب أبيدوس.. بل تم الهجوم على السيارات في طريقها إلى الغردقة.. أي بعد أن انفصل سرب الغردقة عن سرب أبيدوس.. وكان واحد من أصدقائي المقربين في هذا السرب، فما إن سمعت بخبر الهجوم عليهم حتى اتصلت به.. فرد مهموما وأثر الصدمة واضح وجلي في صوته.. فسألته عمًّا حدث فضحك.. ثم ضحك.. وبعدها لم يعد يتمالك نفسه.. لقد ظننت أنه قد أصابت عقله لوثة من أثر ما حدث.. وقلت في نفسي: لا بد أن الخطب جلل..

لكنه بعدما استجمع شتات نفسه وهدأ قليلا.. قال لي: تعرف أني جبان ولا أخرج في سرب أبدا إلا وأطلب من السائق أن يسير خلف سيارة الشرطة.. وإن استطاع أن يلتصق بها فلا مانع عندي.. وعلى الرغم من أن أغلب السائقين يكرهون السير خلف سيارات الشرطة مباشرة.. لأسباب مختلفة لسنا بصددها.. لكن الرجل استجاب لطلبي.. ولكن بعدما حدث اليوم فلن أفعلها مرة ثانية.. فما إن بدأ الهجوم علينا.. حتى لاذت

سيارة الشرطة بالفرار.. وتركتنا نواجه الهجوم بمعرفتنا.. وعلى الرغم من أن الهجوم كان أقرب ما يكون إلى مسرحية.. فلم يقُم المسلحون بضرب النار علينا.. بل كانوا يضربون في الهواء.. فربما أرادوا فقط إثارة الفزع والخوف فينا.. لا أكثر.. حتى تلك الرصاصات القليلة التي أصابت بعض السيارات.. أصابت فقط بعض الإطارات وبعض جوانب السيارات.. ولو أرادوا قتل من في العربات جميعا لاستطاعوا ذلك وبكل سهولة.. لكنهم لم يفعلوا.. والأغرب أن سيارة الشرطة الهاربة قد عادت بعدها بلحظات لتطارد هؤلاء المسلحين الذين لاذوا بالفرار.. وعلى الرغم من أن الطريق على طوله وعرضه ملغم بالأكمنة التي كانت مهمتها الأساسية فيما يبدو حينئذ فقط الاصطفاف وقوفا عند مرور السرب لتحية الرتبة التي في المقدمة وإعطاء التمام ثم العودة بسرعة لشرب الشاي ومص أعواد القصب ثم الاسترخاء في الظل أو العكننة على الغلابة من أبناء الشعب.. والذين كانوا ينتظرون طويلا في انتظار مرور السرب.

وبصراحة شديدة.. الطريق من الأقصر إلى أبيدوس هو من أكثر الطرق أمانا في مصر.. إلا في بعض المناطق التي تسودها بعض الصراعات العائلية والقبلية.. وهذه المناطق التي تسودها العصبية والجاهلية معلومة للجميع.. أما بقية الطريق فهي الأكثر أمانا في مصر كلها.. لكن ليس هذا

بسبب الوجود المكثف لرجال الأمن.. بل لأن الناس هنا لا يعرفون إلا العيش بسلام والسعي كل يوم للبحث عن لقمة العيش.. وليس فيهم من هو على استعداد لأن يفقد حياته.. ويترك من خلفه بلا عائل لهم.. يكفلهم ويعينهم على مصائب الدهر..

وإن كانت الأكمنة على الطريق تقول غير ما أقول.. فما بين كمين وكمين يوجد كمين.. وكأنك مسافر من قطاع غزة إلى قلب إسرائيل.. بل ربما بين فلسطين وإسرائيل لا توجد كل هذه الأكمنة.. ولا يوجد كل هذا التأمين.

لكن على الرغم من كل هذه الأكمنة وتلك العساكر التي لا تبرح مكانها في الكمين.. وحتى الخفراء الذين يحملون في أيديهم بنادق صيد العصافير ذات الأيدي الخشبية التي عفى عليها الزمن وأصبحت من الأنتيكات.. فإن اليوم مرَّ فقط بستر الله.

ونعود إلى روعة الطريق.. فلا أظن أن أحدا منكم يستطيع أن يرى صورة لمصر نابضة بالحياة والحيوية كتلك التي أراها كل مرة في طريقي إلى أبيدوس.. صورة حقيقية وغير قابلة للتزييف: نهر.. وترعة.. وحقول.. وغيطان.. شريط سكة حديد يسير عليه قطار.. ومحطات قطار قروية من

أيام الاحتلال.. ومبانٍ حجرية.. وكتل من الأسمنت.. وبيوت من الطين.. وبوابة كبيرة لقرية مصرية تقول أهلا بالزوار.. وجرار خلفه مقطورة عليها بعض الصغار.. ونساء يغسلن في الترعة بعض الأواني والثياب.. وقباب خضراء صغيرة.. عليها بعض الأعلام.. ومسجد غير مكتمل البناء وأمامه صندوق مكتوب عليه «تبرعوا لبناء مسجد التقوى».. أو «مسجد الإيمان».. وضريح الشيخ محمد العريان.. وسوق في القرية.. والأطفال في طريقهم إلى مدارسهم.. وحتى بائع الأواني الفخارية.. وكذلك الجزار.. وراعي الغنم.. والحلاق.. وبائع الغلال.. وبضع مقابر متناثرة ومتهالكة.. وكأنه لا أحد يريد أن يدفن هناك.. وعربات الأسمنت.. وعربات نقل الرمال.. ومقطورات الحجارة.. والعربات المحملة بالطوب على الطريق.. فالمحاجر على اليمين ومصنع الطوب الطفلي على اليسار.. وهناك أيضا عربة يجرها حمار وتحمل فوقها حملا كبيرا من عيدان الذرة.. وفوق الذرة عيون لامعة تتوسط وجوها سمراء.. وحمار طيب يسير في الطريق وحيدا.. وآخر يهز ذيله ورأسه في عناد.. وحمار هزيل يحمل فوق ظهره اثنين..

وعلى جانب من ضفة النهر كومة من الفخار تحوي قللا وطواجن وجرارا.. بينما في زاوية من الطريق فرن لحرق الفخار.. وفي مياه النهر

تلمح مركبا صغيرا يتسع بالكاد لرجل ومعه ابنه الصغير.. يحاول أن يصطاد شيئا.. بينما يتأرجح مركبه فوق صفحة المياه ويجري مبتعدا مع التيار.. وبائع السمك عند أول الكوبري داخل عشته الصغيرة.. وأسماك البلطي.. والقراميط ما زالت على قيد الحياة..

وعربات على الطريق محملة بالموز والطماطم وجميع أنواع الفواكه والخضار.. وأشجار النخيل.. وثمارها تعلوها كتاج مرصع بالعقيق.. وأشجار الجميز.. والكافور.. والمانجو.. وتعريشة عنب فتية تتسلق الجدران.. والنيل وقد توهج بأشعة الظهيرة فأخذ يشع ضياءً.. وجبال تحيط بالمكان فلا تعرف إن كانت مصدر خوف ومكمن خطر.. أم أنها مصدر أمان.. وشجرة دوم على ضفة النيل.. وتحتها رجل يصلي.. منظر رأيناه فوق جدران المقابر المصرية منذ آلاف السنين.. وكهف في الجبل منحوت.. وكأنه مخبأ للصوص.. معبأ بالكنوز.. ينتظر علي بابا وأخاه الشرير.. وسماء صافية بلا غيوم تسبِّح بحمد خالقها وتدعوك معها للتسبيح.. وخيال مآتة فوق ربوة صغيرة من الرمال.. وبائع العسل الأسود يرص جرار العسل وأقماع الحلوى..

كل هذا السحر وأكثر في طريق واحد.. اسمه طريق أبيدوس.

كل هذه الصور النابضة بالحياة والحركة والمليئة بالحيوية

والأصالة في طريق واحد.. اسمه أبيدوس.. لكن على الرغم من كل هذا فهناك قصة سمعتها عن رجل عاش في إحدى القرى الواقعة على هذا الطريق.. قصة أعيشها في كل مرة أمر فيها بهذا الطريق..

قصة شاب عاشق.. في مقتبل العمر.. جميل ووسيم.. بارز القوة.. واضح الفتوة.. وفارس أحلام.. لا يقارَن.. هكذا قد يبدو لمن لا يعرفه.. فالشاب لديه مشكلة لا تبدو عليه بسهولة.. لكن بعيدا عن مشكلته التي قد تبدو للبعض هينة وبسيطة.. فهو عامل ماهر في المصنع الكبير المقام على حدود القرية.. تلك التي يسكنها أغلب عمال المصنع من المغتربين.. لكن القرية منقسمة على نفسها.. وتزيد مياه الترعة الراكدة من انقسامها؛ حيث تقسمها إلى قريتين: واحدة شرق الترعة ويسكنها أبناء البلد.. وأغلبهم من الفلاحين.. وقليل من الموظفين.. وهذا الجزء من القرية منغلق على نفسه.. لا يدخله أحد من الأغراب.. ولا يسمح لأحد منهم بالاقتراب منه مهما كانت الأسباب.. وعلى الجانب الآخر من الترعة جزء آخر من القرية.. جزء لا يسكنه إلا الأغراب.. ومنهم عامل المصنع الذي كان من عادته أن يتمشى كل يوم في ساعة العصاري على شط الترعة.. يسير بلا هدف.. يتسكع وحيدا.. لكنه يمشي في الوقت ذاته مختالا.. وكأنه يسير على كورنيش الساحل الشمالي.. وفي كل مرة يخرج

فيها للتسكع يتأنق وكأنه في طريقه للقاء حبيب.. على الرغم من أن حياته كانت خالية من كل حب.. حتى لمحها ذات يوم تقف في بلكونة الدور الأول.. في منزل مكون من طابقين.. وعلى الرغم من بساطة بنائه.. فإنه من الواضح والجلي أن صاحبه من ذوي الشأن في القرية.. لكن الفتى تسمر أمام جمالها.. ولم يعد أي شيء آخر مهمًّا.. لكن الجمال الذي رآه هرب إلى داخل البيت.. فانتظر وكله أمل لعل القمر يطل عليه من جديد.. لكن القمر لم يظهر.. فعاد من حيث جاء وكله شوق ورجاء.. وفي عصر اليوم الجديد ظل يسير على شط الترعة.. جيئة وذهابا.. مرارا وتكرارا.. حتى لمح جمالاً يطل من بعيد.. فأشار إليها ملوحا بكلتا يديه.. فما إن رأته حتى توارت.. لم يلُم نفسه على ما فعل.. ولم يخشَ عواقب ما حدث.. لكن جل ما خشيه هو ألا يرى بعدها وجه القمر.. ولكن في اليوم الثالث.. وفي ساعة العصاري.. رآها من بعيد.. تقف خلف النافذة.. تسترق النظر.. وهكذا كل يوم.. وفي الموعد نفسه.. وفي المكان نفسه.. يذهب ليراها.. فيجدها في الانتظار.. لم يحاول حتى أن يسأل عنها.. حتى لا يلفت إليهما الانتباه.. ولم يحاول حتى أن يعرف إسمها.. فاسمها لن يغير شيئا.. لا من جمالها.. ولا من تعلق قلبه بها.. واستمرت النظرات لبضعة أشهر.. لم يتغير الكثير من هذا المشهد.. إلا ذبول اعترى كل من الفتى

والفتاة.. بعدما أخذت الرغبة تستبد بكل منهما في اللقاء.. وحب كل منهما لشخص الآخر المجهول.. الذي أقل ما يمكن أن يوصف به أنه عين الجنون.. فلا هو يعرف عنها شيئا.. ولا هي تعرف من أمره شيئا.. فقط تنظر إليه.. فيشير إليها.. فتتوارى بعدها داخل البيت.. ليأتي يوم جديد.. وعصر جديد.. يتكرر فيه المشهد نفسه.. حتى جاء اليوم الذي تعتبره القرية بالنسبة لها بمثابة عيد.. يوم مولد سيدي إبراهيم شيخ القرية وكل القرى المجاورة.. اليوم الذي تخرج فيه كل الفتيات وكل الفتيان.. يشترون حلوى المولد.. ويلعبون ألعاب المولد.. ويشاهدون المداح والطبال والمرماح.

فلما لمحته بين حشد من الناس.. غافلت صديقاتها وجرت في أثره لعلها تلحق به.. ولكن عندما اقتربت منه بما يكفي.. نادت عليه.. على الرغم من أنها تجهل اسمه.. لكنها نادته بما ظنت أنه قد يستجيب له.. لكنه لم يستجب لها.. ولم يسمع حتى صوتها.. وعندما لم يلتفت غضبت وظنت أن حبيبها يحاول التملص من وعد لم يقطعه يوما على نفسه.. ومن عهد بينهما لم يُكتب؛ لذا لم تنتظره بعدها في النافذة.. كما تعوّد منها.. وإن كانت تقف من خلف الشيش.. تنتظر قدومه.. وتراقب حيرته ونظراته الملتاعة بحثًا عنها.. يكاد يخترق بنظره جدران البيت لينقب

عنها.

بينما كانت الفتاة تقف في حيرة.. ما بين فرحتها بحيرته وهذا القلق الذي تراه في عينيه وحيرتها مما فعله بها.. فإذا كان قلبه معلقًا بها.. فلماذا لم يلبِّ نداءها؟

كانت كلما رأته على تلك الحالة تكاد تلقي بنفسها من النافذة لتقع بين يديه.. وإن كانت في الوقت ذاته تقف في مكانها ولا تتحرك.. ربما للانتقام منه.. أو حتى لمجرد عقابه على ما بدر منه.. أو ربما خوفا مما سيفعله بها والدها إن عرف.. وقد استمر هذا الوضع أياما.. كل يوم.. وفي الميعاد نفسه تقريبا.. يأتي الفتى العاشق.. ويمزق الطريق ذهابا وإيابا.. وقلبها يقفز من ضلوعها لهفة عليه.. ومن جسدها.. إلى النافذة.. إلى الطريق.. إلى الترعة سابحا في مياهها.. إلى حضن حبيبها الذي يموت اشتياقا في انتظار أن يعرف ما يُطمئن قلبه عليها.. وفجأة رأت دموعا تنساب على وجنتيه.. ففتحت النافذة على آخرها.. لتنير برؤيتها شمس حياته من جديد.

سألها في لهفة.. أين كانت.. وسألته في عتاب.. لماذا عندما نادته في المولد لم يجب.. أشار إلى أذنيه بأنه لم يسمع.. صدقته.. فما كان لها أن تظن يوما أن حبيبها من الممكن أن يكذب.. وبعد العتاب أخذتهما الكلمات

الصامتة.. كلمات تُرجمت للغة الإشارة.. ربما لبعد المسافة.. ولكن فجأة ظهر رجل من خلف عيدان القصب.. لقد عاد أبوها من زيارة قصيرة لأحد أصدقائه من هؤلاء الذين يسكنون غرب الترعة.. ولمح ابنته من بعيد تقف في النافذة.. وتشير بيديها لشخص ما مختبئ بعيدا عن الأعين.. خلف إحدى الشجيرات المورقة.. فاقترب ليستوضح الأمر فرأى العاشق الذي من هيامه لم ينتبه.. حتى بعدما هربت حبيبته إلى داخل البيت لم يُفِق.. ربما لأنه قبل أن يدرك سر هروبها كان أبوها قد أسرع إلى رقبته.. وأخذ الرجل يكيل للفتى الضربات والسباب.. وتجمع الناس ليحولوا بينهما.. فكيف يجرؤ هذا الفتى البائس على معاكسة ابنته الوحيدة التي كان يتركها طوال اليوم في البيت وحيدة وحبيسة.. ولا يخرج من البيت قبل أن يغلق عليها الباب.. ويحتفظ في جيبه بالنسخة الوحيدة من مفتاح هذا الباب.. ولا يهم ساعتها إن احترق البيت في غيابه بمن فيه.. أو حتى أصابها في داخله مكروه.. فلم تجد من ينقذها؟ إنه يحميها على طريقته الخاصة.. طريقة لا تدل إلا على قصور فهم.. وأسلوب عتيق في الحماية عفى عليه الزمن.. فلا مانع عنده في سبيل حمايتها من التضحية بها.. وقد نسي أنه في كل مرة يخرج فيها ويغلق على ابنته الباب.. قد خلف وراءه في البيت واحدة من البشر.. لها قلب.. وعندها عقل.. ولديها

عاطفة.. وتفتقد الحب والحنان بعد موت الأم.. ورفض الأب الزواج بغيرها.. وكأن هذا هو كل ما كانت تحتاج إليه.. تضحية بلا معنى.. أو ربما كانت تضحية كان لها معنى.. لكنها فقدته.. فالوحدة بين أربعة جدران لفتاة مثلها ليست بالهينة.. ولو كانت ابنته قطة لقفزت وهربت منذ زمن.

لقد ثارت ثائرة الرجل.. وهو يأبى إلا أن يقتل هذا الشاب.. فحاول البعض تهدئة الرجل.. فكانوا كمن يصب على النار الزيت.. فما إن قالوا له كيف يعاكس هذا الفتى ابنتك وهو أصم وأبكم حتى هاج وماج: «وكمان أخرس وبيعاكس؟».. ثم توقف للحظة وكأنه أدرك للوهلة الأولى لماذا كان الفتى يتلقى ضرباته بصراخ مكتوم.. ولم يكن عجز الفتى عن الكلام بعذر للرجل الذي أخرج من بين طيات ملابسه سلاحا.. لكن أصدقاء الفتى أنقذوه من بين يدي الرجل بأعجوبة.. ولم يعرف كيف أقنعوه بأن يقتاده لمركز الشرطة.. ليأخذ حقه بالقانون.. وظن الرجل أنهم قد أوقعوا به.. فماذا سيقول شاب أخرس مثله؟ ومن سيشهد ضده.. وهو الوحيد الذي رأى فعلته؟

لكن الفتى اعترف بفعلته.. على الرغم من أن أصدقاءه حاولوا أن ينقذوه بما شهدوا.. وقالوا إن الرجل ربما قد تخيل شيئا لم يحدث..

وطالبوا بإحضار الفتاة إلى قسم الشرطة لأخذ أقوالها.. وتعجب بعض الحضور من شجاعة الفتى وإصراره على قول الحق.. بعدما أقر بفعلته ولم ينكرها.. بينما استنكر البعض الآخر بجاحته..

ولإتمام المحضر كان لا بد من إحضار الفتاة.. وذهب والدها لإحضارها بنفسه.. لكنه لم يذهب وحده.. فكما كاد يفتك بالفتى كاد أيضا يفتك بها.. وقد كال لها الضربات والسباب.. وقد كان من بين ما قد قاله لها.. كيف تسمح لنفسها بأن تشير لفتى أخرس.. فلم تفرق معها الضربات ولا الركلات كما فرقت معها تلك الكلمات.. كيف تسمح لنفسها بأن تشير لفتى أخرس؟ هل حقا هذا الفتى الذي تعلق قلبها به أخرس؟ هل حقا هذا الفتى الوسيم الذي أحبته أخرس؟ وظل السؤال يعيد نفسه مرارا وتكرارا.. فكيف لها أن تصدق أن فتاها الذي أحبته لما يقرب من العام وتنازلت من أجله وعن طيب خاطر عن كل زيارة للأهل والأقارب أو حتى المعارف والجيران.. تلك الزيارات القصيرة التي كان أبوها يسمح لها بها.. على فترات متباعدة.. وبعد كثير من الإلحاح والرجاء.. وبعد أخذ كل الاحتياطيات.. كل تلك الزيارات التي كانت لها بمثابة إفراج مؤقت ومشروط من السجن الذي فرض عليها.. باسم الحماية.. حماية السجان.. الذي لا يعرف قلبه لا الرحمة ولا الحنان؟ فهل ضحت بتلك

اللحظات التي كانت تستعيد فيها بعض حريتها مـن أجـل فتـى أخـرس؟ لقد عاشت مع صورته أياما وشهورا.. وكان كـل أملـها هـو أن تـسمع منـه كلمات تشفي روحها.. وتعوضها بعض الحـب الـذي لم تعرفـه منـذ وفـاة أمها.. فخاب أملها.. لكـن منـذ متـى كـان الحـب مجـرد كلمـات؟ الحـب إحساس.. حتى لو كانت تنقصه الكلمات.. لقد كان حبها للفتى يزيـد كـل يوم علـى اليـوم الـذي قبلـه.. علـى الـرغم مـن أنهمـا يومـا لم يتبـادلا أي عبارات.. أو حتى كلمات.. ولماذا تـربط الحـب بالكلمـات والعبـارات؟ ألم يكن لها في قصص الحب التي سمعتها من صديقاتها عظة وعبرة؟ ثـم مـاذا عن ابنة خالتها سعاد؟ ألم يهجرها من أحبته بجنون بعدما أمطرها بوابل من الكلمات والهمسات؟ إن الحب ليس فقط مجـرد كلمـات؛ لأن الكلمـات لو خرجت من لسان كاذب وقلب خائن فقدت معناهـا.. وأصـبحت سـهامًا قاتلة في قلب من يـصدقها.. لكنهـا منـذ عرفـت الفتـى وألفتـه وأحبتـه لم تحتَج يومًا إلى الكلمات التي تعبر عمًّا في قلبها من حب.. ولا عمًّا يعـصف بقلبها من هيام.. فقط نظرات.. وبعض الإشارات.

لكن الأب لم يترك لابنته الكثير من الوقـت لتفكـر فيمـا حـدث.. وذهب بها إلى المركز.. وحذرها من أن تحـاول إنقـاذ الفتـى مـن تهمتـه.. وعليها أن تشهد بما يدينـه.. حتـى إن كـان هـذا في مجتمـع ضـيق الأفـق

بمثابة فضيحة وعار.. لكن ثورة الأب وغضبه من ابنته جعلاه لا يفكر إلا في الانتقام.. ولو على حساب سمعته والتشهير بابنته.. ولكن ما إن دخلت البنت إلى هناك.. ورآها الفتى العاشق.. ولأول مرة منذ أن عرفها على بعد خطوات قليلة.. حتى أعلن على الملأ رغبته في الزواج منها.. وطلب يدها من أبيها أمام الحضور.. واعتبر الرجل هذا الطلب نوعا من الوقاحة وسوء الخَلق.. وطريقة بغيضة من الفتى لإهانته.. لكن الرجل صُعق عندما رأى ابنته حبيسة الدار تعلن عن موافقتها على هذا الزواج.. حتى دون الرجوع إليه.. فانهال عليها ضربا أمام الحضور.. مما أثار حفيظة رجال الشرطة ضده، حتى إنهم قد أبلغوه بأنهما إذا أرادا الزواج ورغبا فيه فسوف يقومون بتزويجهما حالا وفورا.. فليست ابنته بالقاصر.. كما أن الرجل ليس بالأب الرشيد.. وأشار أحد الرجال ممن يظنون أنفسهم من العقلاء على الرجل بأن يحتال لنفسه حتى ينجو بابنته.. فأقر بموافقته على زواجها من الفتى الذي تحبه.. بعدما همس الرجل في أذنه.. لكن الأب اشترط لإتمام الزيجة وحفاظا على كرامتها وكرامة أبيها أن يتم عقد الزواج في بيت العائلة.. وإلا فماذا سيقول الناس عنه وعن ابنته إذا شاع خبر زواجها في القسم وبتلك الطريقة التي يراها وبكل تأكيد مهينة؟ ووافق الجميع.. وأقر الرجل أمام الجميع بالتزامه

بإتمام الزيجة والحفاظ على شرف الوفاء بكلمته.. لكن الأب تحت جنح الظلام أجبر ابنته على السفر معه لزيارة عمتها المقيمة في القاهرة منذ سنوات طويلة.. بحجة شراء جهاز عرسها.. ولم يعرف الفتى بالخبر إلا عندما ذهب للقاء العروس وأبيها لمعرفة ما يلزمه لإتمام هذه الزيجة.. لكنه لم يجد العروس ولا أباها.. ولم يدُر بخلده أن أباها قد خدعه واختطف العروس.. حيث ظل يذهب كل يوم إلى بيتها.. يطرق الباب بقوة.. وينتظر من يجيب طرقاته.. ثم يخرج.. ويقف تحت النافذة.. لعل القمر الذي أحبه ينير حياته من جديد.. لكن طالت ليالي حياته.. وامتدت لبضعة أشهر.. لكن الفتى لا يمل ولا يكل.. وكأن عزيمته من حديد.. بضعة أشهر مرت وهو لم يخلف يوما موعده مع نافذتها المغلقة.. ولا موعده مع جدران البيت الصماء.. حتى أصبحت سيرة العاشق الأخرس حكاية وموالا.. الجيران أصبحوا ينتظرون مجيئه كل يوم.. ليلقي على البيت الذي خلا من أهله نظرة تقطع نياط القلب.. ودمعة حائرة في عين العاشق.. تأبى أن تصدق أن أحبته قد هجروا هذا البيت.. تنتظره العجائز في كل يوم.. وتترقبه أعين الرجال.. الكل يراهن عليه.. البعض يراهن على عودته.. والبعض يراهن على عدم عودته.. لكنه في كل مرة كان يعود وقلبه محمل بالهموم.. وعقله مشغول.. حتى عن عذارى

القرية.. وهن يحاولن أن يشغلنه بحبهن.. وكل منهن تمني نفسها بقلب العاشق الوسيم.. ولكن كيف لقلبه أن يشعر بمثلهن وقد فقدت عيناه القدرة على الرؤية.. وقلبه القدرة على الإحساس؟ وعندما لم يجد الفتى في ذهابه وإيابه أي جدوى.. أعلن عن يأسه وقراره بالذهاب بعيدا وهجرة القرية التي لم يعد فيها ما يغري بالبقاء.. ولم يعد له فيها غير الذكريات الحزينة والأليمة.. واختفى عن الأعين فترة من الزمن.. حتى نجحت حيلته.. وعاد الأب مع خيال فتاة تشبه ابنته.. بعدما انقطع الشاب الأخرس الوسيم عن زيارة البيت الذي كان مهجورا.. لقد كان الفتى العاشق بأن للأب عيون.. لكن حتى بعد عودة الفتاة للقرية لم يظهر للفتى أثر.. لكن بعد بضعة أيام اختفت الفتاة مرة أخرى تحت جنح الظلام.. لكن هذه المرة كانت مع من أحبت.. وتركت خلفها رسالة تودع فيها حياة السجن للأبد.. وتخبر السجان بأنها أبدا لن تعود..

القصة الرابعة

منى والمجنون

اسمي لن يهمك كثيرا.. فلا شيء مميز في هذا الاسم على الإطلاق، وليس فيه كذلك من شيء غريب أو حتى شاذ.. نعم.. لا شيء على الإطلاق.. لكن هذا لا ينطبق فقط على اسمي الأول.. بل ينطبق على اسمي الأول.. واسمي الأوسط.. وحتى اسمي الأخير.. وربما كما يقولون وحتى سابع جد.. لا شيء مميز على الإطلاق.. كلها أسماء متشابهة.. مجرد أسماء شائعة بين كل الناس.. وأنا هنا لا أتحدث أبدا عن مدى قدسية هذه الأسماء ولا عن مكانتها الدينية ولا حتى المعنوية عند كثير من الناس.. لكني فقط أتحدث عن كوني مجرد واحد من الناس.. له اسم يشبه الكثير من الناس.. وحتى تفهم قصدي سوف أسالك سؤالا مهما إلى حد ما.. فلتقُل لي وبكل صراحة: هل يخلو اسمك أو اسم أحد من عائلتك أو حتى اسم أحد من أصدقائك أو من معارفك أو حتى من جيرانك من اسم أحمد أو محمد أو محمود؟ حتى ولو كنت غير مسلم فلا بد أنك تعرف كثيرين ممن اسمهم مثل اسمي.. كم واحدا منهم في محيط عملك.. أو كان معك في فصلك نفسه.. أو مدرستك؟ وكم واحدا منهم صادفت في حياتك؟ وكم منهم تتذكر إذا مرت بك الأيام والسنوات؟ في الغالب ليس الكثير منهم.. أنا على يقين من ذلك.. ولكن ماذا لو كان أحدهم اسمه الجحش أو البغل أو حتى الحمار؟ هل كنت ستنساه بتلك السهولة التي ستنسى بها من لهم اسم شبيه باسمي المشابه لكل

الأسماء؟ وإن كانت مشكلتي الحقيقية ليست فقط في شيوع اسمي.. حتى إن كان شيوع اسمي قد تحوَّل إلى عقدة كبيرة في حياتي.. فأصبحت أرى نفسي.. ربما ليس تماما كما يراني أغلب الناس.. مجرد شخص غير مميز وله أيضا اسم غير مميز.. ولكن بعيدا عن اسمي فمشكلتي الأكبر تتمثل في كوني رجلا لديه قلب يحب بجنون.. وحبيبتي دائما أمام عيني أراها كثيرا.. لكنها تنظر لي وكأنها لا تستطيع أن تراني.. أو ربما كانت تراني كما لو كنت لا أحد.. مجرد طيف.. أو ربما كانت تراني مجرد شيء لا يستحق حتى أن يلفت إليه الانتباه ولو للحظة واحدة.. غريبة.. أليس كذلك؟ أعرف ماذا تقول عني.. ربما تقول في نفسك هذا الرجل مجنون أو ربما «عبيط».. أو حتى مسكين.. ولكن بإمكانك أيضا أن تعتبرني رجلا مريضا.. لا تستغرب.. نعم أنا مجرد رجل مريض ربما بمرض نفسي جديد لم يكتشفه أحد من قبل.. اسمه (هذا الذي لا يلفت إليه الأنظار ولا يثير الانتباه) لا تسخر مني هكذا.. ولكن دعني أحكِ لك قصتي مع حبيبتي.. فقد رأيت منى الراسي.. حبيبتي تلك التي لا تعرفني منذ سنوات طويلة.. منذ سنوات الدراسة.. فقد رأيتها أول مرة في الجامعة وبالتحديد في صباح يوم ثلاثاء في محاضرة التاريخ الفرعوني؛ فـ«منى» كانت زميلة دراسة لأربع سنوات كاملة.. تخيل أربع سنوات كاملة ولم تشعر بوجودي يوما..

بل سأخبرك بما هو أغرب، فقد أصبحت منى بعد التخرج زميلة لي أيضا في مجال العمل.. وقد أحببتها منذ أن رأيتها أول مرة.. وحبها في قلبي يكبر يوما بعد يوم.. ويزيد يوما بعد يوم.. حتى إن لم أجرؤ يوما على مصارحتها بحبي.

وعندما رأيتها ذاك اليوم في محاضرة التاريخ الفرعوني كنت وبكل صراحة أكره التاريخ وأبغض الفرعوني وأمقت بشدة هذا الدكتور المتصابي الذي كان يدرس لنا تلك المادة وهو الأجهل بها.. ذلك الذي لا يرى إلا كل ما هو مؤنث.. أو فقط كل ما ينتهي بتاء التأنيث.. ولا يلفت انتباهه أبدا كل ما له أي صلة بالمذكر السالم أو حتى ما يشبه المذكر من قريب أو بعيد.. ينفش ريشه في وجه كل طالب.. يزعق بأعلى صوته.. ويوبخ.. ويبكت.. بينما يتحول فجأة إلى «يمامة» عندما يوجه كلامه إلى أي فتاة.. وبقدرة قادر يصبح فراشة حالمة تحوم حول كل طالبة حسناء.. **99٪** هي نسبة نجاح الطالبات في مادته.. تماما مثل نسبة نجاح الحكام العرب في الانتخابات والاستفتاءات التي كانت تُجرى في بلاد الشرق السعيد بينما لا تتعدى نسبة نجاح الطلاب الذكور **60٪** في أحسن الأحوال وعلى أفضل تقدير.. وغالبا لا تحصل أي فتاة – مهما كان مستواها العلمي متدنيا في تلك المادة بالذات – إلا على أحد التقديرين: إما امتياز وإما جيد جدا، وغالبا ما يعلل

سيادته عدالته المطلقة بحصول الفتيات على تلك التقديرات العالية بأن البنات أشطر من الأولاد بكثير.. ولأنه رجل عادل فهو يحتفظ بباقي التقديرات من جيد ومقبول للطلبة الكسالى من الذكور.. ولكن منى الراسي كانت هي الاستثناء الوحيد لقاعدة السيد الدكتور المحترم.. فهي لم تحصل أبدا على التقدير العادل لها الذي تستحقه كطالبة مجتهدة ولا حتى التقدير غير العادل؛ نظرا لكونها فتاة، طبقا لقواعد سيادته في توزيع الدرجات والتقديرات.. وجميعنا يعرف السبب.. الذي كان واضحا للعيان.. فهي تقريبا الطالبة الوحيدة التي كانت تعارضه وتناقشه وتعامله بندية الواثق من نفسه ومن المعلومة التي يمتلكها.. ولم يكن يستطيع أبدا أن يتخطى معها تلك الحدود التي وضعتها سابقا كحاجز بينهما.. تلك الحدود التي يجب أن تكون بين الطالب والأستاذ.. فلا ضحك ولا هزار.. ولا أسئلة عن المادة خارج جدران قاعة المحاضرات وبعيدا عن أعين الطلبة الآخرين وعن بقية الزملاء.. ولا استفسار عن المنهج ولا عن المادة في غرفته الخاصة.. قصدي مكتبه الخاص؛ فهي دائما حريصة على نفسها وبعيدة عن كل ما هو خاص.. ففي داخل المدرج هي طالبة وهو الدكتور المسئول عن تدريس تلك المادة، أما خارج المدرج فلا شيء يربط بينهما على الإطلاق.. اللهم ليس إلا الاحترام الذي لا بد أن تبديه لمعلمها مهما كان رأيها في

سلوكه.. هذه هي منى الراسي التي أحبها من سنين.. وهي تستحق حبي واحترامي لها بلا أدنى شك.. ولأن منى حبيبتي كانت زميلة دراسة في الأساس.. فالمكان الوحيد الذي كان يجمعنا هو قاعة المحاضرات؛ لذا فقد كنت أحضر من أجلها كل المحاضرات تقريبا.. أدخل قاعات الدراسة مبكرا قبل أي طالب آخر وأغادر قاعات الدراسة فقط بعدما تغادرها منى الراسي.. فإن لم تأتِ يوما فلا أرحل إلا بعد أن يغادر المكانَ آخر طالب.. لأن الأمل يظل يحدوني حتى اللحظة الأخيرة.. فربما حضرت منى في أي لحظة.. على الرغم من أنها في كثير من الأحيان لم تكن تحضر.. لكني كنت أنتظر في كل مرة على أمل أن تحضر.. نعم كنت أنتظر طويلا وحتى تغلق الجامعة أبوابها ويضطر الحرس إلى طردي.. ثم أعود بعدها إلى البيت مكتئبا وفكري مشغول فقط بها.. لماذا لم تأتِ؟ هل هي مريضة، أم تراها فقط متعبة؟ هل هناك مانع قوي ليمنعها من الحضور؟ وماذا تراه أن يكون هذا المانع؟ يا ترى ماذا حدث لها؟ وما الذي منعها من الحضور؟ هل أصابها مكروه، أم أنها لم تحضر اليوم فقط لأنها لا تريد؟ ليتني كنت أستطيع أن أعرف.. لقد كان غيابها يثير جنوني؛ لأنها السبب الوحيد الذي كنت من أجله أصحو كل يوم وبداخلي أمل في أن حياتي ستكون أفضل لأني فقط أستطيع أن أراها.

إنها السبب الوحيد الذي كنت من أجله أغسل وجهي وأغير

ملابسي وأحمل كتبي وأوراقي وأقلامـي وأذهـب إلى الجامعـة.. فقـط لكـي أراها.. لقد كنت معروفا في الجامعة بالطالب المحترم.. والطالب الملتـزم.. والطالب الذي لا يتكلم كثيرا.. والطالب الذي لا يتكلم مع أحد.. والطالـب الذي لا يتكلم معه أحد.. ولا يتكلم عنه كذلك أي أحد.. فهل جربت هـذا الإحساس من قبل؟ هل جربت أن تكون لا أحد؟ هل تعرف كم هذا مؤلـما؟ ربما لن تعرف أبدا.. عموما لا يهم.. ربمـا كـان لـدى زملائـي حـق فيمـا يقولونه عـني.. فقـد كنـت الطالـب الحاضـر بجـسده في كـل المحاضـرات تقريبا.. والغائب فعليا وروحيا عن كل هذه المحاضرات.. لم أكن أبدا مـع أي أحد منهم.. فلم أكن حتى أشعر بهـم.. ولم أعـرف أبـدا عـن أي شـيء يتحدثون.. فلم أكن أحـضر لأسمـع أو حتـى لأرى أيًّـا مـنهم.. فقـد كنـت أحضر إلى الجامعة فقط من أجلها.. نعـم لقـد كنـت أذهـب إلى هنـاك لكـي أراها هي وحدها.. وربما لو حالفني الحظ لكي أسمع كذلك صوتها.. ومـن أول لحظة أدخل فيها إلى قاعة المحاضرات وأتخذ لـي مكانـا أجلـس فيـه ونظري فقط معلق بباب القاعة يفتش عنها.. فإذا ما جاءت كنت أقفـز مـن مكان إلى مكـان.. حتـى أكـون أقـرب مـا يكـون منهـا وإليهـا.. أمامهـا أو خلفها.. عن يمينها أو يسارها.. لا يهم.. المهم أن أكون قريبا منها.. فهل كانت بعد كل هذا تشعر بوجودي بقربها؟ لا أظن أنهـا شـعرت بوجـودي

يوما.. لكن هذا حقا لم يكن بالأمر المهم؛ لأن الأهم عندي هو أن أكون أنا بقربها.. وعلى الرغم من كل ما يقال عن أن القلوب المتحابة تشعر ببعضها فإن قلبها لم يكن ليشعر بي.. أو بمكاني.. فقلبها دائما كان يتخطى حيز وجودي.. على الرغم من أني كنت أتعمد الوجود في كل مكان كنت أعلم أنها سوف توجد به لعلها تراني.. ولكن لا فائدة.. أقترب منها كثيرا.. وأصطدم بها عن قصد.. فتتخطاني وكأنها لا تشعر بي ولا تراني.. أقف مع أصدقائها أتحدث إليهم مرغما.. فتأتي إليهم وتلقي بالسلام فأفرح كثيرا.. لعله بعد السلام يأتي الكلام.. لكنها تتوجه بحديثها إلى أصدقائها فقط وكأني لست واقفا بينهم.. وفجأة تحولت إلى مجنون منى الراسي.. والكل أصبح يعرفني ويعرف قصتي.. والكل يشير إلى المجنون.. نعم الجميع يعرفه إلا من كانت سبب جنونه.. فهل كانت فعلا تتعمد تجاهل وجودي؟ أو لعل السؤال يجب أن يكون: هل كانت منى الراسي تعلم فعلا بوجودي؟ وهل سمعت يوما بهذا المجنون؟ الله وحده يعلم.. ولا أحد غيره يعلم.. فربما رأت في وجهي شيئا قد أنكرته.. لكن وجهي مثل اسمي ليس فيه ما يميزه عن غيره.. وليس فيه ما يشينه كذلك.. ومثلما كان اسمي كان شكلي.. لا شيء مميز.. ولا شيء مشوه.. ولا شيء معيب.. فكما أن اسمي واحد من تلك الأسماء الكثيرة الشائعة،

هذا إن لم تكن الأكثر شيوعا.. فملامح وجهي كذلك ملامح عادية جدا وتشبه الكثير من الوجوه البشرية العادية.. فلم أكن يوما قبيح الوجه ولا جميل الوجه.. فليس في وجهي أنف طويل معقوف ولا أنف كبير ومفلطح.. ولا عين أكبر من عين.. ولا أذن واحدة كذلك.. وإن كنت في مثل موقفي لا أعتبر أيا من تلك الأشياء عيبا، فهي بالنسبة لشخص مثلي ميزة كبيرة.. وكذلك بقية ملامح وجهي.. فمن الممكن أن نقول إنها كانت إلى حد بعيد ملامح مثالية بالمسطرة والقلم: حاجبان مرسومان وعينان داكنتان وأنف مستقيم وفم ليس بالكبير ولا الصغير ووجه شبه مستدير.

وعلى الرغم من كل تلك الملامح القياسية للوسامة والجمال فلم أكن بالرجل الوسيم.. بل كنت مجرد رجل عادي الملامح.. متوسط الوسامة.. حتى جسدي لم يكن بالجسد المثالي ولم يكن ليختلف كثيرا عن جسد شاب عادي وطبيعي يمارس رياضة المشي باستمرار.. فلا عضلات ولا انتفاخات.. ولا أي تورمات أو حتى زيادات.. ولا أي شيء بارز على الإطلاق.. وحتى قامتي كانت أيضا عادية لحد بعيد.. قامة رجل متوسط الطول.. لا هو بالرجل القزم.. ولا بالرجل العملاق.. نعم.. مجرد رجل عادي جدا.. وفي كل شيء تقريبا.. فأنا متوسط القامة.. متوسط الوسامة.. متوسط النبوغ.. مجرد رجل عادي جدا في كل شيء حتى في اسمه ولقبه.. صورة مثالية

لرجل بلا مميزات ولا حتى عيوب.. حتى عندما عملت مرشدا سياحيا كنت أيضا مجرد مرشد عادي.. واحد من بين آلاف المرشدين السياحيين الذين يعملون في هذا المجال.. وعلى الرغم من أنني أعمل في مهنة الإرشاد السياحي منذ ما يقرب من تسع سنوات، لكن لا شيء طوال هذه الأعوام الطويلة قد تغير.. لم تزد شهرتي على ذي قبل.. ولم تزد خبرتي على ذي قبل.. ولم يحدث في حياتي المهنية شيء واحد يغير من حقيقة كوني مجرد مرشد عادي.. فمثلا طوال هذه السنوات التسع لم أعمل مع زبون واحد مهم.. لا وزير.. ولا أمير.. ولا حتى سفير.. وطوال هذه السنوات التسع لم يشتك زبون واحد مني.. وكذلك لم يشكرني أو يمدحني أو حتى يذكيني أحد منهم.. وكذلك لم يرسل لي أي منهم يوما خطاب شكر باسمي.. كما يرسلون باسم غيري من زملائي المرشدين الآخرين..

لقد اعتقدت عندما بدأت عملي مرشدا سياحيا أنني سوف أكون مرشدا مشهورا في هذا المجال.. ولا أعرف من أين لي بهذا التفاؤل.. ربما لأني استطعت العمل في أكبر شركة سياحة في مصر كلها.. شركة تمتلك أسطولا من العربات السياحية وجيشا من العاملين والموظفين والمرشدين.. وبلا شك إذا كنت واحدا منهم فيكفي أن يعرف الناس أنني أعمل في تلك الشركة الكبرى لكي أصبح مرشدا مميزا ومشهورا.. لكني اكتشفت أنني

كنت للمرة العشرين بعد الألف غلطان.. ففي الشركة الكبيرة أنا مجرد واحد من العشرات والمئات.. مجرد عسكري نكرة في وسط جيش عرمرم.. وترس صغير جدا في دولاب العمل الكبير.. بل إنه من سخرية القدر أن أجد اثنين آخرين في الشركة نفسها.. لهما اسمي الثلاثي نفسه.. محظوظ.. أليس كذلك؟ لكن لا أعرف لماذا يهيًأ لي أنني الوحيد بينهم الذي لديه مشكلة! فلم أسمع أيا منهما يشتكي.. حتى بعد أن اكتشفنا أننا لم نكن فقط ثلاثة مرشدين سياحيين يعملون في شركة سياحية واحدة ولديهم الأسماء نفسها.. فقد كنا في الحقيقة خمسة من المرشدين الذين يعملون في شركة واحدة ولهم الاسم نفسه.. تصور! هل تصدق حظي التعس؟ قال يعني حبكت.. اثنين من الخمسة ليس لديهما أي مشكلة على الإطلاق.. فالأول مرشد لغة روسية.. والثاني يتحدث التشيكية.. وكنا ننسب كلا منهما إلى تلك اللغة الأجنبية التي يتحدث بها ويجيدها.. مثلا: أحمد بتاع الروسي.. وأحمد بتاع التشيكي.. لكن الثلاثة بتوع الإنجليزي ماذا نصنع بهم؟ أحد الزملاء اقترح أننا ننسبهم للبلاد التي جاءوا منها.. بمعنى، الأول: أحمد إسكندرية.. والثاني: أحمد أسوان.. أما الثالث الذي هو أنا فالمأساة قد اكتملت.. فأمي سوهاجية وأبي قنائي.. وولدت في القاهرة.. وقضيت طفولتي في الإسماعيلية.. ومراهقتي في الإسكندرية.. ثم قضيت

طرفا من شبابي في المنيا.. ثم انتقلت منذ تسع سنوات لأعيش في الأقصر.. هل رأيت حظا أتعس من هذا؟ لقد رفضت أن أعمل في شركة صغيرة بسبب عقدتي.. وحتى أكون مرشدا مميزا ومشهورا.. لكن القدر فيما يبدو كان مُصرًّا على أن يسخر مني، فأصدقائي الذين لم يريدوا أبدا الشهرة أصبحوا فعلا كذلك.. عندما عملوا مع شركات صغيرة على عكس ما فعلت.. فبعد فترة أصبحوا ينسبون إلى تلك الشركات.. وكأنهم أصبحوا مُلاكًا لها مثل سعيد بيراميدز.. وشريف ليون.. وأسامة سفنكس وغيرهم.

أعرف ماذا تريد أن تقول لي.. فقد سمعتها كثيرا من أصدقاء غيرك، لكن اسمح لي هذه المرة أن أعارضك على الرغم من أني لم أعارض أحدا من قبل.. فأنا لست كما تظن.. نعم، أنا لا أضخم الأمر.. ربما لأنه ضخم بالفعل.. ولا تقُل لي أرجوك إن الرجل هو من يصنع الاسمَ ولم يصنع الاسمُ رجلاً من قبل.. هل تعرف كم رجلا في اسمه مثل اسمي؟ وهل تعرف كم رجلا في العالم اسمه يشبه اسمي؟ صدقني ملايين.. اسمي لسابع اسم هو وبلا أدنى شك من الأسماء الأكثر شيوعا في العالم.. وكأنه قد أصبح تقليدا في العائلة كلما ولد طفل جديد قامت العائلة بعمل استفتاء على أكثر الأسماء شيوعا في العالمين العربي والإسلامي لتطلقه على الصغير.. لقد أثبتت عائلتي – على مدار أجيال طويلة ومتعاقبة –

التزامها الواضح والصريح بالمبدأ وعدم خروجها على النظام الذي لا يقبل بكل وضوح وصرامة وجود أسماء شاذة وغريبة، فلا كأس ولا طبق ولا بهلول ولا بلحوس ولا حتى ننوس.. طبعا أكيد أنك تقول في نفسك إني رجل مخبول أو ربما مجنون.. هو حد يطول؟!

وأعرف أيضا ماذا يقول الناس عن هؤلاء الذين أغبطهم لمجرد أن لهم أسماء غريبة وشاذة.. فكم من هؤلاء الذين أحسدهم كانت أسماؤهم سببا في إحراجهم وسببا في فشل كثير منهم.. وكم تمنوا لو لم يكونوا جحوشا ولا حميرا.. ولكن دعك من عقدة حياتي.. فقد تحدثت كثيرا عنها حتى نسيت أن أكمل لك قصتي مع ما هو أهم من ذلك.. ولذا دعني أخبرك عن حب حياتي.. دعني أحدثك أكثر عن منى الراسي التي كانت لها أم صعيدية وأب سوري.. امتزاج ليس بشاذ بين الدماء المصرية والسورية.. بل كان شيئا عاديا جدا، خاصة بعد الوحدة التي قامت بين البلدين في فترة ما من تاريخ هذا الوطن.. ومع ذلك كان بهذا الامتزاج شيء من الغرابة التي تكمن في أن أمها كانت امرأة صعيدية وكان أبوها رجلاً سوريًّا.. فالمعروف عن النساء في الصعيد أنهن لا يتزوجن إلا من أبناء عمومتهن ولا يخرجن من العائلة إلا فيما قل وندر.. وإن حدث أن تزوجت امرأة رجلا من قرية أخرى لاعتُبر ذلك خروجا عن العادات

والتقاليد؛ لذا فلو كان العكس مثلا وتزوج رجل من الصعيد امـرأة سـورية لما كان هناك وجه غرابة على الإطلاق.. ولكن الفضل في هذه الزيجة يرجع إلى جد منى لأمها.. هذا الرجل الأزهري ذو الفكر المستنير.. هـذا الرجـل الذي لم يقل أبدا إنـه سـوف يـشترى لابنتـه رجـلاً بـشرط أن يكـون هـذا الرجل الذي سوف يشتريه صناعة مصرية.. بل قال كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إذا جاءكم من ترضون دينـه وخلقـه فزوجـوه».. سـواء أكان هذا الرجل مصريا أو سوريا أو حتى يابانيا.

وفى الحقيقة فإن الرجل لم يندم أبدا على هذا القرار الذي اتخذه؛ فزوجُ ابنته كان رجلا عند حسن ظنه دوما.. كان رجلا على خلق ودين ولم يُسِئ إلى ابنته يوما منذ أن تزوجها وحتى توفاه الله..

نعم إنني أعرف عن منى أكثر مما تعرفـه هـي عـن نفـسها.. فأنـا أعرف عن حياتها كل شيء.. كـل الأحـداث.. الـصغيرة والكـبيرة.. وكـل التفاصيل المهمة والمهملة.. فـ«منى» هـي محـور حيـاتي الـذي لا أجـد لـه بديلا ولا أريد عنه تحويلا.. على الرغم من أنني في حياتها شبه معـدوم.. رجل لا وجود له.. لكني دوما أشعر بأنني قد خُلقت من أجلها ولم أُخلـق إلا لكي أكون إلى جوارها حتى عنـدما أحبـت للمـرة الأولى وكـان حبيبهـا زميلا لنا.. عشقته منى بكل جنون.. لكنه خـدعها وجرحهـا وهجرهـا..

فماذا فعلت أنا من أجلها؟ لا شيء سوى أنني كنت أتعذب لعذابها وأتألم لألمها.. وحتى عندما أعلنت خطوبتها على أحد أقاربها.. أين كنت أنا؟ لقد كنت هناك أيضا قريبا منها وسعيدا من أجلها.. ولكن عندما فسخت خطبتها.. ماذا فعلت أنا؟ لا شيء على الإطلاق.. كنت فقط كفراشة تحوم حول شمعة مضيئة وتخشى الاقتراب منها حتى لا تحترق بنارها.. لكن منى خُطبت للمرة الثانية وكعادتي لم أفعل شيئا ولم أحرك ساكنا وتمنيت لها السعادة من كل قلبي.. لكن أمنياتي هذه المرة أيضا ذهبت مع الريح؛ فالعريس هرب مع غانية وترك خلفه منى وفي قلبها جرح دامٍ وتمنيت من كل قلبي أن يمنحني الله الشجاعة لكي أعلن عن نفسي وحبي لها.. لكن الوقت لم يكن مناسبا؛ لذا فقد قررت أن أعطيها الوقت الكافي لكي تشفى من جراحها.. نعم لقد قررت التريث والانتظار، لكن هناك من لم يتريث ومن لم ينتظر.. فتزوجت منى الراسي وما زلت أنا قابعا في ركن مظلم من حياتها راضيا بنصيبي الذي لم آخذه منها.. وأنجبت منى الراسي أطفالا كنت أتمنى لو كانت قد أنجبَتهم منِّي.. لكنها لم تفعل.. والعمر يمضي وأنا كما أنا مجرد رجل عادي، لكنه عاشق إلى حد الجنون.

وكما كنت أذهب إلى الكلية كل يوم لكي أراها.. فما زلت أذهب كل يوم إلى عملي فقط لكي أراها.. أو ربما ما زال عندي أمل في أنها يوما قد تراني وتعلم بحالي وتشفق على مجنون أشقى نفسه في حبها ليالي.

الفهرس



سليشيا

ولن تتخيل أبدا مدى المأساة ولا مدى الحزن ولا الألم الذى يشعر به هؤلاء الأباء الذين بحثوا عن أبنائهم يوما فلم يجدوهم لأن يداً آثمة وقلوباً صدئة قد سرقتهم وباعتهم لتعود تجارة الرقيق مرة أخرى ولكن فى القرن الواحد والعشرين أى بعد أكثر من قرن كامل من إلغاء العبودية والرق وتحولت القضية الإنسانية إلى قضية لا إنسانية ..

عزه لطفي

